114

إيمان جبل

لعبَة البَيت

t.me/kotb_pdf

رواية

دار دَوِّن

لأنكِ غابة تعرتْ للموت

وفتحت ممراتها للهاربين

أهجرك..

أهجرك يا امرأة نابعة من التراب

سنية صالح

(نشيد الأصوات)

إهداء

إلى السيدة الجميلة/ هبة الشيخ..

أمي وأم كل عَالَم أعرفه.

ماتيلد

أنا ماتيلد. الابنة الوحيدة لعائلة مفقودة، وتاريخ ضائع، وبيت وحيد.

استيقظت في صباح الرابع عشر من حزيران لأجد نفسي في مكان مجهول تمامًا. في البداية تخيلت أني لازلت داخل الحلم. ظللت بضع دقائق مرتكزة على حافة السرير في الظلام التام. أرجعت كوني لا أزال نائمة وحلمي هو المتحكم بي إلى طبيعة الظلام المحيط بي. فغرفتي مدينة من نور؛ صباحها تخترق فيه الشمس كل نوافذها، وليلها لا تُطْفَأ فيه مصابيح. أنام بقلب حفلة من الضوء، وأفيق في مثلها.

ولكن الدقائق طالت أكثر من اللازم، فقمت من مكاني أتحسس الجدران التي بدا ملمسها خشنًا لا يشبه الملمس الناعم لورق الحائط في حجرتي.

تسرب خوف بطيء إلى قلبي، جريت في المكان وأصداء خطواتي تصنع صوتًا أقوى من الخطوات نفسها.

في أثناء الحركة العشوائية المرتعبة تعثرت في منضدة، تحسست ما فوقها، حتى أضاء مصباح يعمل باللمس.

بالكاد مكَّنتني الإضاءة من رؤية أبعاد المكان.

غرفة كبيرة مستطيلة تشبه صالة البيت، مستقر بها سرير رفيع بحجم جسدي النحيف، كرسي خشبي، منضدة دائرية تحمل دفترًا بلون الزيتون الأخضر، مصباح إضاءة، وصحن به خمس تفاحات. لا شيء أكثر من ذلك تحويه الغرفة الغريبة.

تفحصت الجدران جيدًا، فوجدت ساعة ضخمة تتوسط الحائط المقابل للسرير. يشير الوقت فيها إلى موعد تقريبي لاستيقاظي كل صباح، الثامنة وعشر دقائق، تحتها مباشرة

روزنامة مثبتة على تاريخ الرابع عشر من حزيران.

ركضت في كل أنحاء الغرفة، تفحصتها ركنًا ركنًا.

«ما من مخرج مطلقًا، لا أبواب، لا نوافذ. أليس هذا دليلًا أكيدًا على أني داخل الحلم؟» ظللت أكررها لنفسي.

وقفت لحظات مستندة إلى المنضدة وأنا أركز على فكرة الخروج من الحلم، في محاولة للتشويش على احتمالية كوني سجينة أحد ما.

ألقيت نظرة ثاقبة على نفسي وأنا أتفحص جسدي بأصابعي، وأمسك قماشة البيجامة الساتان البيضاء التي نمت بها ليلة أمس، وأخدش المانيكير الأحمرعلى أظافري بأسناني: «هل يمكن تقشير المانيكير في الحلم؟».

شعرت فجأة برغبة قوية في التبول، زاد ضغط المثانة بشكل لم أعد أحتمل معه.

«لو هذا حلم ستوقظني عملية التبول نفسها، فما من مرة أفرغ عقلي مثانته داخل حلمه، إلا وتنبهت وقمت فزعة، سواء تمت العملية حقيقة أم لم يخرج مائي من الحلم».

وجدت في ركن من الأركان بالوعة صغيرة، وصنبور ماء. خلعت البنطلون والسروال الداخلي، وطبقت وضعية القرفصاء بعد أن نزعت غطاء البالوعة.

أفرغت مثانتي، جعلت ماء الصنبور يسيل فوق ماء جسدي ليطرده نحو الأسفل، ارتديت ملابسي، ورجعت ثانية إلى المنضدة.

ارتميت على الكرسي بينما أمرر أناملي على عنقي محاولة الوصول إلى حنجرتي. اختفى صوتي، حاولت الصراخ ولم أعرف.

قمت هائجة نحو الحائط أهجم عليه بكفيّ، أمسك

الكرسي وأقذفه نحو الجدران. أبحث عن باب سري، عن أي شيء يخبرني أني لست بقبر.

قفزت الساعة نحو الثانية عشرة وأنا أبدل بين المنطق والجنون كما أبدل بين قطع الملابس الخفيفة.

بعد نوبات انهيارعديدة دخلت دورة هدوء أشبه بالاستسلام، وفي لحظة سكون أمسكت بالدفتر فوق المنضدة، تفحصته جيدًا، فارغ تمامًا، والقلم إلى جانبه جديد لم يُنزع عنه غطاؤه الشفاف ولا مرة من قبل. حاولت استعادة تفاصيل اليوم السابق ربما لاسترجاع أثر الأمان الروتيني الذي كنت دائمة التمرد عليه.

بدأت يوم الثالث عشر من حزيران مع عمتي في تمشية صباحية حول البيت في شوارع الزمالك، أداعب الأشجار، أقطف منها وأنثر أوراقها فوقي بينما أرقص في مدخل كل شارع وأنا أسبق عمتي خطوة أو خطوتين.

قبل الظهر بقليل مررنا على مخبز لشراء الدَنِش، وهناك

انتزع شاب جديد في المخبز هدوء عمتي حيث فك ربطة كيسنا بأسنانه لأني طلبت منه تزويدنا بقطعة إضافية.

أخذت الكيس وأنا أراقب غضب عمتي التي أعرف كيف تعيد دورة حياة الميكروبات بداية من فم الشاب وحتى وصول المخبوزات المحلاة إلى منضدة مطبخنا.

لاطفتها على طريقتي السافلة كما تسميها: «لن تأكلي الكيس يا عمتي حتى تخافي بهذه الطريقة.. وحتى لو لامس فمه قطعة الدَنِش، ما الكارثة في الأمر؟ لو قبّلك رجل ستمتزج كل عناصركما معًا، بما فيها ميكروباتك اللعينة». ولكنها عمتي التي لا تعرف مشاعرها سبيلًا لجسدها. عمتي التي لا تعانق، لا تلمس، وتفضل مشاعر الحب الشفهية.. كيف ألقي لها بمزحة عن القبلة!

في البيت وحتى المساء كنت في غرفتي أحضِّر مخطوطة كتابي الجديد. على طاولة العشاء التقينا، وذلك كان المشهد الأخير قبل نومي.

انتصبت في مكاني وشرر فكرة مرعبة يفور في مقدمة هواجسي. فتحت صنبور الماء ووضعت رأسي تحته.

وقفت بعدها في مواجهة الحائط وصوت مشروخ يُهِّم بالخروج مني:

- عمتي، أرجوكِ أخرجيني من هنا.

نداء، اثنان، الثالث وجاء صوت عمتي ثابتًا مجمدًا وكأنما يخرج من فريزر:

- راهنت طوال حياتي على ذكائك يا ماتيلد. تعرفين دائمًا كل شيء، وتتوصلين إلى الحقائق بنفسك مهما حاول عقلك مراوغتك بالإنكار.. منذ الدقيقة الأولى وأنت تدركين جيدًا موقفك، وتعرفين أنك سجينتي أنا، ولكن ذكاءك ماطل قرابة الخمس ساعات.

- عمتي، أنا ماتيلد ابنة يديك، هل أنت واعية لما تفعلين؟

أرجوكِ لا تضيعينا.

- ورثتِ ذكاء أبيك يا ابنة أخي، ولكنه ذكاء متحذلق مستهين بقدرات الآخرين، ويعرف كيف يتلاعب بفكرتهم عن الصبر والصمود.

- افتحي لي الباب، وسنحل كل شيء معًا.

- ما من باب يا ماتيلد، ما من مخرج يا روح عمتك.

كما لا تعرف عمتي كيف تستخدم جسدها في تصريف المشاعر، أنا أيضًا لا أعرف كيف يمكنني أن أستخدم البكاء. لم أستعمل دموعي مرة واحدة منذ اشتغلت ذاكرتي.

ولكني شعرت برغبة جارفة في البكاء، فشققت الصمت بصريخ جاف بالكاد أنزل معه دمعة أو دمعتين.

هددتها:

- سأقتل نفسي.

- لن تقتلي نفسك، أنت تحبين وجودك أكثر من أي شيء بالعالم، وقد تحرقين كونًا بأكمله من أجلك فقط.

- سأقتل نفسي أيتها المرأة المسكينة المجنونة.

- هناك سكين تحت صحن التفاح سيفي بالغرض، استخدميه إن شئتِ.

- وماذا أتوقع من عانس مكبوتة مثلك يا عمتي الجميلة؟

- إن كنتِ تريدين الخروج من هنا، أمامك خمسة أيام تكتبين فيها رواية كاملة.

- هل تحبسينني في قبر لتتلاعبين بي؟

- ألا تحبين اللعب يا ابنة عمتك؟ من المفترض بك أن تفخري بالعمة التي باتت تتحدث لغتك. اكتبي الرواية وسنرى إن كانت تستحق حريتك أم لا.

- أية رواية؟ أخرجيني من هنا وسأفعل لك ماتريدين أقسم لك برحمة أبي.

رمت جملة أخيرة وتركتني في صراخ ابتلعني بالغرفة:

- سأمهلك ساعة تتوصلين فيها لعرض أفضل من عرضي الذي قدمته لك. فكري جيدًا.. فالثمن حريتك.

هل سأحاسب الآن على فاتورة الحياة؟

وارد حدوث سوء تفاهم بيني وبين عمتي، ولكن أي سوء تفاهم هذا؟ سجن بلا مخرج!

ما من منطق في هذا الجنون. وعن أي شيء بإمكاني كتابة رواية؟

إن كان هناك عرض يهدئ فوران جنونها ويجعلها تفك أسري، فماذا قد يكون؟

لكي أخرج لابد أن أمنح.. والمنحة ليست في كتابة رواية.

إنها تروم أبعد من ذلك. ربما تريد مني بذل نفسي أمامها كتابةً، نفسي التي أخزنها كوديعة في حصّالة لم أَجُدْ بشيء منها لا عليها ولا على أي مخلوق.

عمتي تبتغي موتي! ولكن كيف بإمكاني تزييف موت يرضيها وفي نفس الوقت يضمن لي حماية حياتي الحقيقية بعيدًا عن قهرها وتجربتها الغامضة.

ربما سأقترح عليها كتابة روايتها الخاصة.

رواية من أجل عمتي الموهوبة التي تعاني عجزًا شديدًا في كتابة رواية وحيدة، كما قالت في مذكراتها السرية التي تخبئها في خزانة صغيرة بقلب الجدار المواجه لسريرها، والتي كنت أستمتع بقراءتها كل ثلاثاء حينما تذهب في مشوار سري تغيب فيه قرابة الخمس ساعات، وذلك قبل أن تكشفني وترفع عني دفاترها.

الغريب أن مذكراتها نفسها تُعَّد رواية من طراز فريد. كتابة ساحرة لم أعرف كيف أتوصل لمثلها رغم حصاد ثلاثة كتب منشورة ومخطوطة.

لا أفهم كيف لهذا الإبداع الخطير ألا يعرف كيف يُصَرِّف نفسه في رواية!

إن قارنت نفسي بعمتي فأنا موهوبة بالإيحاء.

إيحاء كوني ابنة لكاتب كبير، وإيحاء كون عمتي راعيًا رسميًا لصناعة المواهب.

ولكن كي أجاريها في الكتابة سواء كتبت لها رواية، أو كتبتها هي من خلالي باعتباري عرابتها أو خيط إلهامها، فلا بد أن أكون على دراية احترافية بماهية العمة التي احتضنتني كأم حنون، وتسجنني الآن كجلاد مهووس. فهل أعرفها كليلى لا كعمتي؟

كنت أعرف منذ فترة، وتحديدًا بعد موت جدتي أنها ستقبل على فعل مجنون، فالكبت دائمًا ما يشي بصاحبه.

وعمتي عاشت هنا حياة لو عشت مثلها لأصبحت قاتلة متسلسلة.

لذلك كنت أغفو كل ليلة أنا ووسادتي فوق سكين مخبأة في تجاويف مرتبة سريري.

«السكين.. السكين».

نفضت الأفكار من رأسي، ومددت يدي بسرعة مجنونة نحو صحن الفاكهة، رفعته لأجد السكين، السكين خاصتي. إذًا تعرف عمتي كل شيء! تسبقني بخطوة كبيرة لا تتسق مع تاريخها من الوداعة.

لابد وأن أفكر الآن في عرض أقوى، أن أقترح عليها كتابة رواية مشتركة. رواية نحملها معًا. وفي هذه الحالة ربما بإمكاني تطويع كل ما أعرفه عنها من أسرار لتحصين طريقة الخروج من سجنها.

ولكن ماذا ستختار عمتي التي تعبد البيت مثل شجرة مقدسة تجذرت في تربته، أمام نبتة مستحدثة مثلي ما من هم لها سوى الطيران؟

هل ستحشرني هذه المرأة -التي لا أظن أني أعرفها- في

زاوية الكتابة عن أكثر مكان أكرهه بالعالم، عن البيت!

آه كيف ستكتبين يا ماتيلد؟

هل ستخبرينها أن البيت عندك يعني فقدان السيطرة إلى الأبد، وأن الجحيم يبدأ من جِذْر؟

تعبت من التفكير، فمددت ذراعي بطول المنضدة لربما أتمكن من ممارسة تمرين تأمل يلهمني بفكرة أو بورطة!

أثناء حركتي، لامست يدي المصباح، فارتفعت الإضاءة فيه بشكل ملحوظ. لمسته ثانية، فانتقل لمستوى أعلى، لمسته ثالثة، فبات معدل الإضاءة هائلًا على غرفة بهذا الحجم.

مصباح بأربعة مستويات للإضاءة، ملتحم التحامًا كاملًا بالمنضدة، وكأنه ابنها.

باتت هيئة النور في الغرفة غريبة جدًا عند المستوى الرابع، مرتفعة نحو الأعلى، وكأن المصباح شمس بالأسفل تطلق أشعتها نحو السقف. ركزت عيناي على مواضع ارتكاز الأشعة، فإذا بجداريات تشبه التماثيل المنحوتة نحتًا خفيفًا، كانت أقرب إلى رسومات بارزة، بدءًا من السقف وحتى أعلى جزء بالجدران كلها.

وجوه عذبة مسالمة لمنحوتات عيونها وتعبيرات وجوهها جميعًا وكأنها هاربة من الجحيم. رجعت بمستوى الإضاءة إلى الثالث، فتراجعت الأشعة لجزء من الجدران يبدأ من أقدام التماثيل، وينتهي عند أرضية من الأجنحة، ربما الأجنحة المنتوفة للآلهة المنحوتة بالأعلى. وبين الأقدام والأجنحة فراغ حاد من الأنصال والسهام.

نزلت لمستوى الإضاءة الثاني، فأخرجت لي بقع الضوء مستوى مرتفع من الأرضية، وكأنها أرض ثانية ناتئة من أرض أولى. عبارة عن حشائش ونباتات متسلقة على شكل أقلام ينزل منها أمطار من حبر أحمر أو دم.

الإضاءة الأولى عكست الأرضية الأولى، أرض الدماء والتي كانت آخر مساحة على امتداد الحوائط.

- لازلتِ حية.. لمَ لم تقتلي نفسك؟

أتى صوت عمتي من الخارج بلهجة راسخة.

- لأني توصلت لعرض أفضل، لعرضين.. إن راقت لك فكرة المفاضلة بين شيئين. ولكن قبل أن أبدأ رحلتي معك كفأر تجارب أريد أن أتأكد من سلامة هذه المقبرة.

- من أي شيء تريدين التأكد؟

- التهوية، مصدر الماء، والصوت.. كيف يأتيني صوتك بهذا النقاء بينما المكان مصمت بالحوائط! ولم تفاصيل المكان مرتبطة بمستويات الإضاءة؟ وما كل هذا الفن الذي يزين السقف والجدران؟

- التهوية ممتازة، فقد أثبتت هذه الغرفة كفاءتها على مدار عمرٍ كامل. مصدر الماء أضمن لك نقاءه، ليست مياه معدنية، ولكنها تصلح للشرب وللعيش معًا. والصوت يصلك عبر فتحات التهوية السرية التي لن تعرفي مكانها ولو قضيت الخمسة أيام في البحث.

وعن ارتباط المكان بالإضاءة، فاليوم الأول فقط بإمكانك التحكم فيه بالضوء، والتنقل خلاله عبر المستويات جميعها. لكن بعد ذلك، تبدأ المستويات نفسها بالتحكم. اليوم الثاني للمستوى الأول، اليوم الثالث للمستوى الثاني، اليوم الرابع للمستوى الثالث، اليوم الخامس للمستوى الرابع والأخير.

وبالنسبة للفن في السقف والجدران فهو حكاية هذا المكان، ربما أخبرك بها يومًا ما، وربما لا يسعفنا الوقت.

وبما أنك لم تذكري أمر أرضية الغرفة تحت قدميكِ، فذلك معناه أنك لم تهتدِ لزر تجميع المستويات. هناك زر قبل نقطة التحام المصباح بالمنضدة، تحسسيه واضغطي عليه.

فعلت مثلما قالت، فإذا بالمكان وكأنه سابح في الفضاء، ومنبع النور كله ينبعث من تحت قدمي، من أرض شديدة الزرقة.

قلت لها في محاولة لضبط أعصابي:

- أين يقع هذا المكان.. أرجوكِ أخبريني.

- هل توصلتِ لعرض أفضل من عرضي؟ قالت عمتي في تجاهل تام لسؤالي.

خفَّضت مستويات الإضاءة وجلست على الكرسي بينما أحاول الوصول لنبرة بإمكاني التحايل بها عليها:

- عرضان.. اختاري أيًا منهما.

الأول: أن تكتبي روايتك من خلالي، أن أكون ملهمتك، ويدك.

الثاني: أن نتشارك الرواية سويًا.

- سنكتبها معًا، ولكن على شرط. مقابل هذا الشرط سيتوقف أمر حريتك.

- أخبريني يا عمتي.. هل هناك ماهو أفظع من مدفني هذا؟

- الشرط هو أنه حينما تبدأ الرواية، ستسقط أصواتنا. سنهب أرواحنا للحكاية. إن ولجناها، لن نخرج منها إلا وهي منتهية مهما حدث داخلها من فظائع.

- أي فظائع يا عمتي؟ ألا يكفيكِ خضوعي لجنونك الخالص هنا؟

- ألا توافقين على الشرط؟

- أوافق مسبقًا على ما لا أعرفه؟ سأموت من الخوف، ارحميني وسأفعل من أجلك أي شيء.

- صدقيني هذا في مصلحتك، أنتِ أكثر شخص سيتمنى حبس نفسه داخل الرواية ولن يريد الخروج منها حتى يعرف الحقيقة.

- أي حقيقة؟ لماذا أشعر أني في فيلم أجنبي؟

- الفيلم الأجنبي لم يبدأ بعد...

- أخرجيني من لعبتك يا عمتي أتوسل إليكِ. سنكتب الرواية معًا بالخارج.

- لا قيمة لها خارج هذه الجدران.

- لا أصدق أنك تديرين لعبة حقيرة معي.

- لأنك تستهينين بي. في أوقات كثيرة يُغَفِّل الذكاء صاحبه، ويصبح كالقناع على عينيه فيراه في مقدمة كل شيء. كم يشبه ذكاؤك المختال ذكاء أبيكِ الذي دفعه في النهاية إلى الاحتراق حد الموت.

- وما علاقة أبي بهذا السخف؟ ماذا تقولين؟

- أقول إن أخي ربما يكون قد استهان بي من قبلك، فافتعلتُ الحريق في بيت الكتابة الخاص به.. ربما أكون فعلًا قد فعلت ذلك.

دارت الأرض بي، وانطلق صراخي ليذبح حنجرتي.

صراخ، صراخ، صراخ حتى وقعت على الأرض وأخذت أشتمها بأقذر الألفاظ وألعنها، وهي وراء الجدران لا تنطق. أفقت من انهياري وأنا غير قادرة على النطق بكلمة.

خرج صوتها هادئًا باردًا:

- هل أدركتِ الآن أن مصلحتك تكمن في دخول الرواية والالتزام بقوانينها؟ علينا الآن يا صغيرتي تسليك متاهة الكلمات بيننا، وحفر نفق جديد يصلح للحياة.

سكنت عدة دقائق منتظرة إجابة مني، ولكني كنت أموت بالداخل. تحدثتْ ثانية بجرعة هدوء مكثفة:

- كان على أحدنا أن ينظف مخلفات الحياة خلفنا كي نعيش، كي نستقيم، كي نتخيل حتى أننا نحيا. ولما لم يلتفت أحد قط، تصدرت أنا نمط الحياة نفسه بمحرك سحري يتحسس الوسخ قبل حدوثه.

والآن هل عشت؟ هل بإمكاني استدراك المسموح لي من الحياة؟

لم أحب أحدًا كما أحببتك يا ماتيلد، وفي الوقت نفسه كنتِ أكبر باعث لكراهيتي. لم تجن عمتك بعد.. دعينا نكتب الرواية سويًا والآن. والدوافع والأسباب ستكشف لك عن نفسها تباعًا، وربما لا.

سكتت هذه المرة مطولًا وأنا أعرف أنه صمت استراحة ما بعد البكاء. فبإمكان تلك المرأة أن تصرخ كل خلاياها دفعة واحدة من الألم، بينما يخرج صوتها ثابتًا مثل جبل.

تكلمت بنبرة أكثر تطورًا:

- أعرف أنك خلال الساعة التي تركتكِ فيها، فكرتِ بشكل جاد في التلاعب بي. ولا عيب في ذلك يا خوختي الصغيرة. بإمكانكِ استعمال كل الأسرار التي تعرفينها عني. لا أعدك بأنها ستكون مناورة شريفة تمامًا، مسموح

لكلتينا الدفع بالأكاذيب والحقائق ما شئنا. المهم أن تخرج روايتنا في طور الخلق المكتمل. حينها فقط بإمكانك الخروج من هنا.

سمعت صوتها يبتعد بينما تقول لي:

- بعد اليوم الخامس يتوقف المصباح عن الإضاءة، والصنبورعن إخراج الماء.

ليلى

ما قبل الرواية

هنا في هذه البيوت نصنع غربتنا بصفة رمزية تنوب عن المنفى والهرب والتشرد، نصنع بلادًا بقلب البيوت المعمرة بالخوف. البيوت التي نمت داخلنا كخطيئة لا يكفر عنها سوى السكن فيها. من الخوف إلى الخوف، من الخوف إلى الغربة، من الغربة إلى البيت الخائف، البيت المشرد، البيت الحزين. هل سأكتب عن البيت؟ ما الفرق أصلًا بيني وبين البيت؟ وكيف يمكن أن أفصل كلًا منا عن الآخر كي أتمكن من استخلاص قصتي؟

نحيت الأفكار المجنونة الضاغطة جانبًا، فلا أحد يذهب لاستكشاف العالم وهو مرهق، وأنا لست مرهقة فقط، أنا محطمة بما لا يدع للإرهاق أو أي شعور إنساني آخر مجالًا

للتعبير عن نفسه.

تركت ماتيلد بالغرفة، صعدت للأعلى، وأقول للأعلى لأن غرفة السجن التي أحبسها فيها تقع في نفق أسفل البيت. ستحين قصة السجن لاحقًا، بعدما آخذ دوري في الحكاية، في الحياة، في حياة هذا البيت، هذا السجن. أتمنى أن تطاوعني الحبكة، أن أستخلص من حياتي ما يشي بالحبكة.

أخذت حمامًا ساخنًا دون أن أفكر في شيء. تركت الماء يتدفق على جسدي المرتعش البارد. خرجت من الحمام ورائحة سائل الاستحمام بالتوت البري تتسرب من مسامي. رفعت المنشفة بعد أن لففت شعري بها جيدًا. شعري الذي ينمو بسرعة رهيبة كلما قصصته. الآن، يغطي طوله نصف ظهري بعد أن جعلته بمحازاة كتفي منذ ثلاثة أشهر.

اتجهت ببطء شديد نحو المطبخ حافية القدمين. والبطء أصبح حالة شبه دائمة تلبستني بعد موت ماما. أسير في البيت كالمنتشي في حالة سكر خفيفة، أتمسح بالجدران، أتلمس بقدمي الأرضية، أعاين الفروق بين الباركيه

والبورسلين في حبور غريب. أفرد جسدي على كل أريكة أقابلها في طريقي، أتمطع مثل قط كسول.. مثل حيوان براري يستكشف الحياة لأول مرة في صحبة بيت.

في المطبخ، جلست إلى الطاولة أراقب بخار الماء المغلي وهو يندفع من غلاية الشاي المعدنية. فعل المراقبة هذا أصبح جزءًا أصيلًا مني. صحيح أنني كنت كذلك على الدوام، ولكن موت الأم منحني عيونًا إضافية. صببت كوب شاي، أزحته على رخامة المطبخ البيضاء لحين انتهائي من تحميص شريحة توست بالزبد. ولا بد أن أنوه هنا لأهمية هذه العملية الدقيقة. تحميص الخبز بالزبد وبدونه كالفارق بيني الآن وبين ماتيلد بالأسفل. لا يمكن الاستهانة بمثل هذه الأشياء التي تمنح الروح الأصلية؛ فمكعب زبدة بحجم عقلة إصبع قادر على أنسنة قطعة طعام.

على وتيرة هدوئي، جلست أتناول وجبتي وأنا أتأمل البرطمانات الزجاجية المتراصة في الجانب الشرقي، والجانب الغربي من المطبخ. الشرقي يمتلئ بوصفات المربى: الكرز، المشمش، التوت، الخوخ، التفاح. أما الغربي للمخلل: الخيار، الليمون، الجزر، البرتقال، اليوسفي، الباذنجان. برطماناتي الجميلة المصنوعة بعناية،

والتي أخذت وصفاتها من «ريري» و«حكمت»، خادمتان مرتا على هذا البيت. ريري عرفت أسرار صناعة المربى ونقلتها لي كاملة. وحكمت كانت مهووسة بتخليل أي شيء يقع في طريقها، وقد أعجبني ذلك الهوس بشدة حتى إنه لم يتركني بعد رحيلها منذ ثلاثة عشر عامًا.

«إنسانة مزيفة، لا تملكين شيئًا أصيلًا.. لا تعرفين سوى التقليد والاستنساخ»، هكذا كانت تقول ماما دائمًا، حتى إنها ماتت دون أن تمنحني فرصة حقيقية أخبرها فيها عن بعض الأصول التي ابتكرتها. قمت من مكاني قبل أن يهلكني الغضب، صعدت إلى غرفة نوم ماتيلد. فتحت خزانتها، اخترت فستانًا أسود. أنا وهي بمقاسات مشابهة جدًا حتى إنها استعارت، بل وضعت يدها على معظم فساتيني. اليوم ربما أنا بحاجة لأن أمتزج بها لكي أفهم، لكي أكتب من خلال هذا الألم الذي يشقني نصفين.

لبست الفستان، أغلقت السحاب الجانبي، رفعت شعري للأعلى بمشبك شعر من المعدن أمام المرآة. رتبت سريرها، لملمت حاجياتها المبعثرة في أنحاء الغرفة. ألقيت نظرة على الأوراق فوق مكتبها، مخطوطة روايتها الجديدة المكتوبة بخط سيء وحبر أسود يشبه الحبر الذي كان

يكتب به أخي مراد. عدلت الصور على المكتب، صورة مراد وماتيلد وهي في السادسة بضحكة جميلة بلا أسنان أمامية. صورة لها مع والديّ في حفل تخرجها في الثانوية. صورة معي وأنا أحملها وأتأرجح بها ملفوفة في حضني في سرير الأرجوحة بالحديقة.

قبل أن أخرج من الغرفة، تمعنت في اختيارها للصور الثلاث على الحائط. الأولى وهي بعمر الخامسة أمام طاولة طعام، تدس إصبعها في قالب حلوى، وأمارات الشر البكر تلوح على وجهها الصافي الجميل. عينان متأهبتان، حاجبان متربصان، وفم مذموم. والإصبع المدسوس بالحلوى يصنع ثقبًا واضحًا في الصورة. اختيار أكثر من جيد لصورة تفي بتكوين ماتيلد التي تحوز عالمًا كاملًا، كحيازة طاولة عيد الميلاد الممتلئة بالحلوى، ورغم ذلك تؤجل متعة الاستمتاع بالنعمة، بتوزيع الغضب علينا خارج الكادر.

الصورة الثانية لماما السيدة «جيهان الكاشف»، واقفة في وضعها الرسمي الوحيد الذي تلتزم به في كل الصور. تنورة سوداء، قميص أبيض من القطن، ويدان مبسوطتان بحرية على جانبيها، بتسريحة شعر لا تتغير، شعر مكوم أسفل الرأس بميل خفيف جهة اليسار. تكاد صورها تلمع من فرط

الأناقة، أناقة متشددة لم تهتز يومًا.

الثالثة لمراد في طفولتنا، يقف وهو يسند كوعه إلى إحدى سيارات أبي، وأنا في الخلفية تحملني «سين»، الخادمة التي كانت تشاركني البكاء، وتحضر لي يخنة الصلصة والفلفل الحلو كلما عنفتني ماما. وتقريبًا كانت تصنعها لي كل يوم بطريقة مضاعفة حيث كانت تُعَنَّف هي الأخرى من تحت رأسي.

حسنًا انتهت كل المقدمات الآن، وصار لزامًا عليّ الخوض في عظام القصة، علّني حين أعلن نهايتها أستعيد حياتي المفقودة من جديد! ولكن كيف يمكن أن تكون بداية إنسانة متعثرة في الكتابة، إنسانة تحت يديها تسعة عشر دفترًا مكتملًا من اليوميات، وتعجز عن إخراج دفتر واحد لحكاية تجسد كتلة واحدة! هل أبدأ من ماما حيث اعتقادي القديم أن حدود العالم تبدأ بأم شريرة أو أم طيبة أو أم مفقودة؟ وهنا ربما سأتعثر أكثر في محاولات تسليك خيوط أمي المفقودة، عن أمي الشريرة، عن أمي الطيبة.

عليّ أن أحترق بينما أخلع جذوري لألمعها وأكتشف

حقيقتي. فكرت في ألبومات الصور العديدة التي تملأ البيت. البيت الذي رفعت أعمدته كاملة عن طريق تثبيت اللقطة إلى الأبد. ربما هي أغرب فكرة في العالم بالنسبة لي، ولكنها حدثت بالفعل.. لم يمر يوم في بيتنا دون التقاط الصور، بيت مزود بعشرات الكاميرات. كل من فيه مدفوعون بقوة خفية أو وراثية لتجميد الزمن، وتحميضه، وتعليبه في مئات الألبومات. عشنا هنا نتغذى على الصور كما تغذت هي الأخرى علينا. لقطات عشوائية تشبه نمط الحياة نفسه، غير مرتب لها، غير منطقية وغير جيدة أحيانًا. صور في البكاء، في النوم، في الخوف، في الرغبة، في الفقد. صور في الثبات، في الضحك الثقيل والخفيف. ليس منا من لم يقبض على كاميرا وظل يخزن الصور داخلها، حتى الخادمات اللاتي وُظِّفن بالبيت على مدار عمري كله، أمسكن بالكاميرا والتقطن الصور.

وقع اختياري -كبداية نشطة تقذف بالذاكرة نحو بُعد صريح للألم- على ألبوم يضم صورًا لعيد ميلادي العاشر، أخرجت الألبوم من الأرشيف. أرشيف قائم على مساحة مائة وأربعين مترًا مربعًا، أي ما يساوي مساحة شقة سكنية متوسطة الحجم. هل يعطي هذا انطباعًا مبدئيًا عن مواصفات البيت؟ عنا؟ عن شكل القصة التي يمكن كتابتها؟ حسنًا، بيتنا يشبه القلعة، قلعة سوداء برتوش

كثيفة من الأخضر الزيتوني، مبنية على مساحة ألف متر مربع، مطوقة من الخارج بحديقة تلف البيت كله. وعلى مسافة متوسطة ما بين البوابة الرئيسية وباب البيت، يستقر ملحق البيت، «بيت الكتابة» الذي يخص أخي مراد، والذي تبلغ مساحته مائة متر مربع.

نعود ثانية إلى الألبوم الذي اخترته من الأرشيف، حيث سأستعيره كإحماء لما يمكن أن تكون عليه رواية شديدة الخصوصية. نزلت إلى الأسفل، اقتربت من غرفة ماتيلد، استقبلني صوتها بنبرة مهذبة مذعورة «هل بإمكاننا البدء يا عمتي؟ أنا أمسك بالقلم والدفتر، في انتظار تعليماتك.. من منا ستبدأ؟».

فتحت الألبوم، أخرجت منه صورة لا أنساها أبدًا. خرج صوتي رغمًا عني «اكتبي يا ماتيلد، ستكون البداية لي.. ليست البداية فقط. سأكتب الرواية كاملة».

الرواية

١-كيف بدأ السجن؟

«كنت أعتقد أننا سنبدأ حينما ينتهي الخوف. لو كنت أعلم لنشأت من الزمن القديم. لولدتُ من الخوف ذاته.. الآن أنا حر وخوفي طازج، أبدأ وأنتهي في نفس اللحظة.. ولا آكل خوفًا بائتًا أبدًا».

بهذه الكلمات -التي حفرتها بنفسي يومًا ما على جدران غرفة السجن من الخارج- انزلقت داخل الحكاية. وأتحدث إليكم الآن من قلب روايتي.

لا أعتقد أن الخوف شعور يمكن إزالته. الخوف في تركيبتي المكون من (ماما، بابا، أخي وابنة أخي) من

المستحيل محوه بحريق يخلف رمادًا، لأنه بحد ذاته حريق مستمر. هل يمكن التخلص من وجودهم مهما رحلوا؟ مهما انتيهنا منهم؟ مهما قضينا عليهم؟ إنهم مستوطنون في رأسي، ورأسي جذر عملاق لشجرة الخوف، لهم.

في الليلة الفائتة وضعت لماتيلد حبة منوم في كأس عصير البرتقال. وبعد معاناة حمل جسدها النائم الثقيل، هي الآن هنا بالداخل، في غرفة الخمسة أيام، كما أسميها. تمسك الدفتر والقلم، وتدون ما يخرج مني. وبما أن الخوف في الداخل أصبح في مواجهة الخوف بالخارج، ربما سينضبط ميزان البوح غير العادل الذي فسخ روحي خلال عمر ضائع.

بعد أن أخرجت الصورة من الألبوم، تلمستها بأصابعي، وتحسستها بوجهي. طفلة في حفل عيد ميلادها العاشر، تقف في فستان أزرق من الحرير الحر، وشعر طويل ناعم ينزلق على كتفيها بأشرطة بيضاء من الدانتيل. تقبض الصغيرة بيديها على كيس حلوى بعصبية شديدة تكرمش الكيس بشكل سيء. عيناها فزعتان بشكل مُقبض، ليستا عينيّ طفلة تحتفل بعيد ميلادها، بل عينا امرأة عجوز تاهت من أهلها في طفولتها، وللتو تذكرت عمرها الضائع في التيه.

كان هذا الحفل شيئًا شبيهًا بالمأساة، حيث لم تسعف الطبقة الخارجية للحكمة لطفلة ذات عشرة أعوام، كي تتمكن من احتواء غضب أمها الناجم عن اكتشاف إحدى خيانات أبيها. كنت مؤهلة لذلك قبلها بأعوام عديدة، حيث يقترف بابا أخطاء عظيمة، تكشفها ماما، لأعاقَب أنا. يعاقبني وهي تشهد عقابي دون أن ترحمني، بل وأحيانًا كنت أرى في عينيها ما يشبه التشفي لغضبها الغامض. ولكن الأمر تلك المرة تخطى حدود سجني بضع ساعات في غرفتي، أو في غرفة المكتبة. كافأَني أبي بهدية عيد ميلاد أضخم من قدرتي على الاستيعاب. غرفة على طراز السجون في نفق معتم أسفل البيت.

قضيت عيد الميلاد في غرفة السجن. تحدث معي أبي جملًا مقتضبة من خلف الجدران التي لا تحمل بابًا أو منفذًا للحياة: «ربما ستتسائلين مطولًا عن دافع سجني لكِ. هذا إن سميناه سجنًا يا ليلى، ولكني سأمنع عنك وجع الرأس، وألقنك السبب مباشرة. كتب أخوكِ مراد أول قصة له، بل ورسمها في عمر خمسة أعوام، ومنذ ذلك اليوم وهو يغذي عرق العائلة والبيت بسحر إبداعه. الآن يبلغ مراد ثمانية عشر عامًا ورصيده من الموهبة كفيل بتخليد لقب عائلتنا

إلى الأبد. حتى ولو لم يكتب بعد اليوم كلمة إضافية، يكفيه ما صنع. أما أنتِ، فقد انتظرتك خمسة أعوام إضافية على بداية أخيك، ولكنكِ بلا روح، كأنك جثة. هل تعتقدين أنني جلبتك إلى هذا العالم دون مقابل؟ لا شيء بهذا الكون يحدث بالمجان يا ليلى. أنتِ هنا كي تمنحيني ثمرة وجودك. سأتركك خمسة أيام تكتبين فيها روايتك الأولى، تخرجين لي فيها شيئًا يحررك. وإن مرت أيامك دون ثمرة سيتكرر سجنك أبد الدهر حتى يخرج علينا كتابك».

لم أتمكن من النطق، من الحركة، سمعت خطواته تبتعد شيئًا فشيئًا وأنا متورمة في مكاني مثل جرح حديث. ظللت بضع دقائق لا أفكر إلا في جنون أبي، لم آخذ كلمة واحدة مما قالها على محمل الجد. قضيت الليلة الأولى وكل تفكيري منحصر في كعكة عيد الميلاد ذات الثلاثة أدوار المغطاة بكريمة الفانيليا، والزهور وردية اللون المتناثرة فوقها. لم يمهلني بضع دقائق حتى لتقطيع الكعكة، حرمني متعة استكشاف مذاق قالب العشرة أعوام، حيث سحبني من ذراعي بقسوة. أذكر أني ثبت قدمي بالأرض في اعتراض وخوف شديدين، ولكنه جر جسدي كاملًا حتى تمزق فستاني الجميل بأشواك الورود في الحديقة، وجُرحت ساقي.

أقصى تخيل لما كان يمكن أن يتطور إليه عقابه لي هو أن يزيد عدد ساعات حبسي في غرفتي، ولكن هذه المرة لم يكن عقابًا بل كان تأهيلًا لعمر كامل من انقطاع الآدمية.

حينما استوعبت فعلته، وأدركت جهلي التام بسلوكه، تبدد الخوف داخلي، وحل مكانه شعور الإيمان بالخوف. والخوف شيء، والإيمان به شيء آخر.. فقد قررت التخلي عن كل ما يمكن لطفل في مثل سني أن يثير فيه الشعور بالرهبة. وصادقت الخوف كحصنٍ لن يأتي وحش أفظع منه ليقطف عيني. لم أذرف دمعة واحدة، لم أفتش عن مخرج. قلت في نفسي «سأجعل الأيام تمر بهدوء وسكينة حتى يخرجني من هنا، لن يحبسني إلى الأبد».

انسحبت بهدوء من الظلام الذي لا أهابه، وتحسست المنضدة التي أخبرني أبي بوجود مصباح ملتصق بها. شغلت الإضاءة، حملت الدفتر، وذهبت إلى السرير. وهناك تمددت على ظهري في سلام لا يناسب طفلة محبوسة، وبدأت أغني وأنا أمزق الدفتر ورقة ورقة وأطيرها نحو الأعلى. في صباح اليوم التالي لملمت كل الأوراق التي طيرتها، صنعت منها جميعها طيورًا ومراكب شراعية،

ورصصتها على المنضدة في انتظار أبي الذي ينتظر مني مقابل وجودي في الحياة. ربما كانت طريقة تافهة في الرفض، وسلوكًا لا ينم عن ثورة ناضجة. ولكني على الأقل تمكنت من خلال رفضي الضئيل هذا أن أحافظ على كرامتي الصغيرة خلال خمسة أيام كفيلة بقتلي. أما عن التفاحات الخمس فقد نسقت أكلها، تفاحة لكل يوم.

أخرجني أبي من السجن بعد انقضاء اليوم الخامس وفي عينيه خيبة أمل واستحقار لي، بينما لم أبال به على الإطلاق. انطلقت وقتها في البيت وأنا أقدر قيمة كل لحظة أملكها. تحممت، أكلت طعامًا محضرًا بعناية من يد «فاطمة»، خادمتنا السمراء التي حضرت إلى البيت قبل عيد ميلادي بيوم، ولم تتسن لي فرصة التعرف إليها. جلست معها في المطبخ، أسندت ظهري إلى الحائط، وتمددت بعشوائية تكرهها ماما وتلعنني خلالها. عشوائية لم يكن بإمكاني التفريط فيها؛ حيث تحتجزنا سيدة البيت في قلعتها مثل سجناء، تنعم عليهم بالتقتير في العلاقات، والناس الحقيقية. لم يكن أمامي في مواجهة موقفها الاجتماعي المتطرف سوى انتهاز فرصة مصاحبة كل خادمة توظفها قبل أن ترفدها وتجلب غيرها.

عادة ما كنت أحضر جلسات اختيار ماما لخادمة مناسبة، حيث يرسل لها مكتب العمل كل ستة أشهر عدد ثلاث خادمات تفاضل السيدة جيهان بينهن. يعرفون هناك معاييرها في الاختيار، فيرسلون لها خيارات شديدة الدقة. أحببت فاطمة منذ أول لقاء بيننا، وتمنيت من قلبي ألا تصرفها ماما التي لا تثق بالبشر بعد مرور ستة أشهر.

أحضرت لي فاطمة صحنًا مسطحًا كبيرًا ممتلئًا بحلوى عيد الميلاد الذي فوته في سجني، في منتصف الصحن تستقر قطعة كبيرة من كعكة عيد الميلاد. قالت لي: «هذا نصيبي من الحلوى، قررت أن أحتفظ به في مكان خفي بالثلاجة لحين عودتك». بكيت وأنا أشكرها وأطلب منها أن نباشر الاحتفال سويًا. أكلنا معًا، وشربنا الكولا في صمت. فكرت في كل لحظة أثناء تناول الحلوى أني أود أن أمنح فاطمة عناقًا، ولكني فشلت في فعلها. كما فشلت في فعلها مع مراد، ماما، وبابا. أظن أن ماما مثلي تخشى العناق وتعجز عن إيجاد طريق ممهدة له، لأنها لم تعانقني قط. حاول بابا معي مرات محدودة جدًا، ولكني كنت أتصنم وأهرب. مراد كان يعرف خوفي جيدًا، فلم يحاول. ولكنه كان يمسك يدي بصورة شبه دائمة ويطبق عليها في محاولة للتضامن معي حينما أكون خائفة ووحيدة.

فكرت في أن أحضر شيئًا لفاطمة التي خبأت لي كعكة عيد الميلاد حتى أعود، فأعطيتها هدية من هدايا عيد الميلاد؛ هدية ماما التي لم أفك شريطها، ولم أفتح علبتها. فتحتها أمامي، لتجد بها صندوقًا صغيرًا يحوي ثلاث قطع من جواهر ماما الأصلية التي ورثتها عن أمها. نظرت إليّ فاطمة في رعب، وألقت بالصندوق بين يدي وهي تقول: «هذه هدية ستي، لماذا تريدين التخلص منها؟». لم أتكلم، تركت الصندوق على الطاولة، وذهبت للنوم. وفي الصباح وجدته على الكومودينو، إلى جانب غلاف الهدايا، وشريطه الحريري الأحمر اللامع.

لم أكن أود التخلص من هدية ماما، بل من ماما نفسها. كان غضبي وقتها مسلطًا بشكل كبير على ماما.. ماما فقط. يعاقبني بابا، فأكره ماما. ينبذني مراد ويكيد لي، فأحنق على ماما. أي شعور في العالم كان مرده ومثواه ماما؛ ربما لأنها لم تمنع عني في أي مرة عقابات بابا القاسية، في إنكار غريب وتنصل لكل ما يحدث لي. بل في أوقات كثيرة وهو يضربني والدماء تنساب مني، كانت تتركنا بعد أن تشبع عيونها بالمنظر وتصعد إلى غرفتها ولا أراها إلا في اليوم التالي. أو ربما لأنها كانت دائمة الرفض لي، غير مرحب بي أو بوجودي عندها مهما فعلت،

محاولاتي لم تصل معها قط لمرحلة الكفاية.

أو ربما لأنها كانت تخيفني وتحذرني من العالم الخارجي لدرجة عجزي عن صنع أية صداقات.

الأسباب أكثر من أن أذكرها، ولكن رغم غضبي وكراهيتي لها، إلا أنني كنت مأخوذة بها؛ بجمالها، بنظامها، بأناقتها، بلباقتها. وطوال الوقت كنت أتحين كل فرصة ممكنة لصحبتها، أو نيل حنانها القاسي.

مرت فترات العقاب متباعدة في بعض الأوقات، وأوقات أخرى متلاحمة بشكل يصعب معه التحمل. تباعد يصل شهرين أو ثلاثة، وتقارب يجعل العقاب مرتين شهريًا. كل هذا متوقف على مزاج بابا، والذي تحكمه بصفة مباشرة علاقته بماما. والعلاقة بينهما كانت ضبابية وغير متوقعة بشكل مقبض. فبابا أغلب الوقت في تجاهل تام لماما، وهي في أقصى مراحل التأهب للانقضاض عليه. يتحاشاها وتترصده، يرفضها وتقصده. لم أكن بالنسبة إلى أبي أكثر من مجرد مكب نفايات. في كل مرة يتقرب فيها مني وهو يبوح لي بغضب عن مساوئ ماما وعن استحالة الحياة

بينهما، أتخيل أنه يصطفيني ويحبني، وأن بإمكاني أن أكون خليلته وأمينة سره، ولكنه فور انتهاء نوبة غضبه، ينهرني ويطردني خارج مكتبه. لذلك تحديدًا أحببت وقتها مراد أكثر من أي إنسان بالعالم؛ لمجرد أنه لم يعاملني كمكب نفايات.

درت وقتًا كبيرًا في فلك إرضاء ماما التي لا ترضى مهما حاولت، مهما دفعت أثمانًا معقدة. كان للجميع نقاط ضعف تسللت من خلالها، وأوجدت نفسي بالحب وبالعطاء، لكن ماما ليست مثل الجميع. بابا مثلًا كان يتحول لطفل صغير حينما أسمعه بحب، ولم أكن أسمعه فقط، بل كنت أسخِّر نفسي له. مراد كان يتفتح مثل زهرة حينما أكلمه عن مخططاته، عن مشاريعه القادمة، وأمهِّد له حديثًا عنها. أما ماما فلم تخضع لأي مؤثر وكأنها من فولاذ. في مرة من مرات جلوسها أمام الجريدة في المساء، ذهبت إليها مباشرة وسألتها: «أخبريني عن طبق طعام تشتهينه يا سيدتي، أود أن أصنعه لك.. وإن أردتِ أبتكر من أجلك وصفة جديدة». نظرت إليّ نظرة واحدة، وعادت إلى جريدتها، ثم قالت: «هناك وصفة أكلتها وأنا حامل بك، لم آكلها منذ وقتها، ولكني أتذكر أني اشتهيتها وظل مذاقها عالقًا في فمي حتى بعد ولادتك، كانت عبارة عن كعك أو بسكوت بالخوخ المطبوخ، الممتزج بكريمة الفانيليا».

لمعت عينا ماما وهي تتكلم عن الوصفة، ولا أذكر مرة في حياتي معها كنت سعيدة بهذا الشكل. وكأنها بحديثها الودود عن طبقها المشتهى فتحت لي بابًا على أمومتها، كأنها قبلتني، كأنها صادقتني، كأنها فعلًا أحبتني!

قضيت ثلاث ساعات في المطبخ أحضر الوصفة، ساعة ونصف في التحضير والطهي، ساعة ونصف في تبريدها. في البداية طهوت الخوخ، أخذت نصف مقدار من شراب الخوخ المبرد لصنع كعكة. نصف مقدار حتى لا يكون مذاق الخوخ فيها مكثفًا، مجرد إيحاء بوجوده. فردت الخوخ على الكعكة، وفوقهما طبقة كريمة مزينة بشرائح قليلة من الخوخ. انتظرت إلى جانب الثلاجة، حتى وصلت الحلوى لبرودة مناسبة. أخذتها إلى ماما، ووضعتها أمامها. التقطت السكين وقطعتها. أكلت قالبًا، زودت آخر.. جلستْ بعدها صامتة متأملة بينما أقف متسمرة في مكاني أنتظر كلمة منها. نظرت إلى الكعكة وقالت: «إنها لا تشبهها حتى، كنت أعرف النتيجة مسبقًا، ولكني أحببت حماسك للتجربة».

أخذتها بسرعة وجريت بها نحو مراد الذي أنهاها تقريبًا وهو يقول لي إنها كعكة تشبه رب الإلهام ذاته. رآني وأنا أبكي فقال لي: «هذه هي ماما يا ليلى، متى ستعتادين؟ كانت بنفس القسوة معي وأكثر، ولكني ارتحت منذ أخرجت أمومتها من رأسي، وصرت أتعامل معها كسيدة لهذا البيت».

كانت ماما تشكو على الدوام لبابا سلوكي تجاه الخدم. تقول له: «كلما أحضرت خادمة، تصادقها وكأنها أختها». كانا يعنفاني بشكل شبه يومي على هذا الفعل. بإحدى المرات وصل العقاب لربطها لي بحبال غليظة، وقصها لمقدمة شعري، ورموشي.. دون أن أفهم وقتها ماهية هذا العقاب القذر. ولكني تداركته في اليوم التالي بالمدرسة حينما سخر مني الجميع.

كانت تقول كلامًا غريبًا عن وجوب حفظ الأمان داخل الطبقات الاجتماعية بعدم الاختلاط، ووضع الحدود الصارمة. تهمس لي بطريقة مخيفة «لا يمكن الثقة بهؤلاء الحثالة، يستحيل أن يحبك الواحد منهم حبًا حقيقيًا، إنهم نفعيون أوساخ، لا يرومون سوى المكسب الذي قد يحوزونه منك، وإن سهوت في لحظة عنهم، لربما يقتلك أحدهم..

هؤلاء محشودون بالكراهية ضدنا يا ليلى». حينما كانت تتفوه بخطاباتها المرعبة تلك، وتعقبها بذكر اسمي، كنت أرتجف في شعور متناقض. ولكن رغم كل شيء، كنت قد عقدت أمري. وصداقاتي مع الخادمات عقدتها في السر. ولم ينكشف أمري من بعدها.

بدت العلاقة بين ماما وبابا أشبه بالرموز، تنظر إليهما دون أن تعرف أيهما يتحكم بالآخر، أيهما المشنقة! كانا يعذبان بعضهما بطريقة مجنونة. فمثلًا لا يحلو لها إهانته سوى أمام الخادمة، وأمامي أنا ومراد. وهو من جهته يكسر كبرياءها بعشيقة تحدثت عنها ماما أمامنا بإحدى المرات. كان يحضر دومًا شيئًا -من سهراته العشقية- يفتت به قلبها. في مرة أحضر معه علبة بودرة للوجه، مرسوم عليها دمية صينية جميلة، وضعها أمامها مباشرة في تبجح واستهانة حقيرة، وصعد إلى غرفته. أمسكت ماما العلبة وحطمتها في زجاج الطاولة. ونظرت إليّ وهي تقول: «سيكون لك أحد المصيرين، إما عاشقة ساقطة تأخذ كل شيء، أو تكونين مثلي».

كرغبة ملحة في استحضار ألمي من خلال ماتيلد، طلبت منها أن تعيد قراءة الجزء الذي كتبته في الرواية؛ لأطلق

عليه حكمًا كوني «كاتب مذكرات جبان ركيزة حياته العتمة».

بطريقة عبثية أخذت كلمة «ماما» تناثرًا ضخمًا بين ثنايا الحكي، وكأنما تشكل لحمه الحي رغمًا عني.

في دفاتر اليوميات جميعها لم تطاوعني كلمة ماما، لم ترفق بي الأمومة. كانت السيدة جيهان عبارة عن هي، هي فقط. أدبيًا ربما يكشف تواصل انسياب «ماما» ثغرات النص، ولكن إنسانيًا سأبقي على هذا الخطأ، على هذا الضعف كإنسان يعاني مرضًا عضالًا لم يعد يعرف كيف يخفيه. وإن كنت في مذكراتي أقف بكامل غضبي ندًا بند أمام الأمومة المتحجرة للسيدة جيهان الكاشف، فأنا هنا أنطلق من داخل العقدة نفسها، مأساة طفلة كاد يقرب وهمها الأربعين عامًا من أجل استخراج أمومة عادلة من بين ركام بيت ميت.

أكره لفظة «أمي» لأن ماما كانت تجبرنا عليها أنا ومراد، في حين رفضنا مناداتها «السيدة جي».

ربما سأعتبر نفسي أبدأ من جديد بهذا الحكي المخالط للبوح الذاتي. سأنادي «ماما» حتى يتشبع جلدي، وثنايا ثوبي، وريح البيت. وربما أتنبه لكون خيار سحب الأمومة يعنيها وحدها، فأبتر السيدة «جي» بكلمة ماما الثمينة.

أما «بابا» كما لا أحب أن أقولها، فلم يستنطق هذه الكلمة داخلي إلا في حالات كتابية بعينها. سواء هنا أم في اليوميات. أبي يظل كما هو أبي، بوقع الكلمة الخشن على قلبي. في العقاب، في الألم، في البعد. ولا يصير بابا إلا إن اقترن اسمه بماما، أو دخل في تتابع زمني مع أحد أفراد البيت في جملة واحدة. وحالة أخيرة نادرة الحدوث ألا وهي، اللحظات الفريدة التي شعرت فيها بآدميتي وأنا معه. فقدت الأمل مبكرًا في أبي. أما ماما فلم أكف عن انتظار أمومتها حتى بعد أن اتخذت بيتًا تحت التراب!

٢- ملاكنا الجديد: سارا

من قلب كل موت كانت تسليتي الوحيدة هي ابتكار صلوات جديدة.. آخر ألف صلاة نادت «يدك هي المعول الوحيد». من وقتها وأنا أستبدل الصلوات بصناعة المعجزات، فما من صلاة ستنافي حقيقة كون معجزتك صناعة بشرية، وما من معجزة ستفي بها ألف صلاة؛ لأن يدك هي المعول الوحيد. ويدي هي التي حركتني لأقول «لا» لأبي على طريقة تضاهي نضج الألم. بعد سجني الأول في غرفة الخمسة أيام كنت بحاجة لشيء أهم من التوثيق، أكثر دقة من التوصيف، أعظم من استفراغ الخوف، شيء بإمكاني المخاطرة فيه بأيامي التي سأموت فيها على يديّ أبي، واستعادة الروح من خلاله أيضًا. كان هذا الشيء هو كتابة اليوميات، تدوين كل لحظات حياتي.

اشتريت دفاتر جديدة من مكتبة قريبة من المدرسة، وخبأتها في خزانة سرية صنعتها بنفسي بقلب الحائط. دونت كل شيء بأريحية وحب، حتى السجن نفسه كتبته

دون قيد أو عذاب.

بعد ثلاثة أعوام من العقاب، انتقلت من عملية تخزين الغضب إلى اللامبالاة، حيث عرفت كيف بإمكاني تطويع سجني. استأذنت أبي لأخذ أدوات للحفر، أخبرته خطتي لصنع منحوتات بقلب الجدران على طريقة الحفر. لم يعارض وكأنه يثق في صمود سجنه أمام أدواتي البدائية، أو ربما دفعه فقدان الأمل في أن تنتج يداي أي إبداع إلى تجربة لهوي الخاص!

بدأت صنعتي بالآلهة، واستخدمت من أجلها سلمًا بالإمكان فكه وتركيبه. حيث يمكن لكل فرد أن يختار إلهه، قررت نحت أربعة آلهة. واحد بديل بابا، واحد ينوب عن ماما، واحد لمراد، وواحد للبيت. وأنا أعود بالزمن الآن لعملية صناعة آلهتي، أضحك ضحكة تخرج من معدتي. ماذا كان سيضيرني إن أضفت إلهًا صغيرًا لقدوم ماتيلد، التي لم تكن وقتها قد خلقت بعد! في عملية تنبؤ تسير بالمقلوب، ماذا لو كنت وضعتها هناك؟

في مرة من المرات وكانت ماتيلد وقتها تبلغ من العمر

سبعة أعوام، فكرت جديًا في نحت إله جديد يخصها. ولكني خشيت عليها من نبوءة التحول لكيان مفترس. والنظرية العبثية كانت قد أفضت أصلًا بكون مخلوقتنا الصغيرة (ابنة أخي التي تشربت مبكرًا جدًا فضلات شر كل من بالبيت، لتخرجهم بصورة مرعبة) تحمل نبوءة أكثر شراسة من الآلهة الأربعة مجتمعين.

نعود إلى تجميل السجن، وتحسين شروطه. صنعت أربعة مستويات للَّوحة المحفورة.مستوى للآلهة، مستوى للأجنحة المنتزعة بوحشية للآلهة قبل أن يرتقوا لدرجة الألوهية، مستوى للروح المقدسة للكتابة، مستوى للقتل الذي بدأت به عملية الخلق والتطور كاملة. استخدمت في المستوى الأخير عبوة طلاء بلون يطابق الدماء. أخذت مني عملية تحويل جدران الغرفة إلى متحف صغير مدة عامين. لم أكن قد اهتديت لزر تجميع مستويات الإضاءة، لأكتشفه فجأة في اليوم الأخير. فيخرج لي منه فنًا بديعًا، لوحة أرضية متفرعة إلى كل الجدران، وكأن السماء من تحتي تنشر الفضاء من حولي. ليصبح المنظرخلابًا، فني ممتزج بفن آخر قديم.

بعد أن انتهيت من اللوحة المنحوتة، لم أقبل أن أسجن

ليوم إضافي. تمردت على أبي بعنف صريح وهددته بأن أقتل نفسي بقلب زنزانته. وبهذا انتهى سجني تمامًا في مطلع عامي السادس عشر. ولكنه من بعدها دخل معي في مرحلة القطيعة. بعدها بشهرين، قدمت إلى بيتنا «سارا» أجمل مخلوق رأته عيناي. امرأة عشرينية بملامح شبَّهتها على الفور بجمال الممثلة الأمريكية «ميريل ستريب» شبه قريب بشكل مجنون.

عيون خضراء، فم دقيق مرسوم، أنف طويل منحوت، عظام وجه بارزة بروزًا خفيفًا، مع شعر ناعم بلون الذهب مسترسل حتى خصرها. كانت تقف إلى جانب أخي مراد، بينما يقدمها إلينا «هذه سارا، زوجتي». لم يتفاجأ أحد في البيت غيري، وكأنهم كانوا على علم مسبق بقدومها، أو لأنهم في الأصل مستسلمون أمام مراد وما يفرضه على عالمنا من أقدار تخصه.

على طاولة العشاء، أخبرنا أخي أن زوجته تنحدر من أصول مختلطة، ولكن أصولها الإنجليزية هي التي تغلب عليها. حكى لنا أنها عاشت أغلب حياتها في بلدها الأم، ولكنها قدمت إلى مصر منذ سبعة أعوام لتفتش عن أصولها لأبيها، ومن بعدها قررت أن تعيش هنا. لم تتكلم سارا طوال

العشاء، كانت تبتسم للجميع في تهذيب ومودة. هكذا بدأت معنا العروس الرقيقة العهد الجديد لحياتها، ودودة، لطيفة مع الجميع.

أحب أبي سارا حبًا متقنًا، وكان مرتاحًا بشكل كبير لوجودها. أما ماما فكانت غريبة، لم تصدِّر لنا انطباعًا واحدًا عن موقفها تجاه زوجة ابنها. لم أعرف حتى الآن حقيقة مشاعرها تجاه سارا، هل أحبتها، أم كرهتها!

أذكر في اللقاء الأول بينهما، حينما انحنت سارا لتعانق ماما، تخشبت الأخيرة في مكانها بشكل أحرج العروس أمامنا جميعًا، ولكن ضيفتنا كانت ذكية وخفيفة، تداركت الموقف وسحبت نفسها بلمح البصر لتمر علينا أنا وأبي وهي تصافحنا وتبتسم لنا.

نزلت العروس في غرفة قريبة من غرفتي بالطابق العلوي، جُهزَت لها أكبر غرفة بالبيت والتي كانت مصمَّمة على شكل جناح فندقي. تحوي غرفة نوم كبيرة، صالة خارجية، حمام كبير، غرفة مكتب ملحقة ببهو طويل. كان من المفترض أن تكون عُشًا للزوجين، ولكن أخي مراد لم يكن

يشارك زوجته الغرفة إلا يومًا أو يومين بالأسبوع، وبقية الوقت يقضيه في بيت الكتابة.

مع سارا، لم أقدر على ممارسة الحضور الكامل إلا من خلال الغياب؛ قالب كعك مصنوع بعناية وحب ينوب محلي، صندوق موسيقى، قنينة عطر، كتاب، دفتر، متعلقات تافهة.

أن أحضر هناك في ساحتها بالقوة المادية للأشياء، بينما أنا هنا في سكوني الأبدي. أن أذهب هكذا بجسدي لم تكن إمكانية متاحة منذ أن حُطّمَت صورة زمنية ما داخلي بأكثر الطرق عنفًا على الإطلاق.. صورة خلقتها، وحطمتها بنفسي.. بعد فترة سجني ربما أو قبلها.. لا أعرف تحديدًا.

وكي تنسحب ذكرى العنف من داخل الجسد، كان يلزمني ما هو أقوى من الزمن، ما هو أكثر متانة من الصور القابلة للتحطيم. استوجبني ما يدفع الحضور ليتراجع عن الخوف، ليسحبني من أصابعي المثلجة، ويقدمني بواجهته الرحبة الدافئة دون الاستناد للأثر، يقدمني لها كوني أنا، ليلى،

ابنة البيت الضائعة، الخائفة، الغاضبة، التي تعتقد أن العالم أجمع لن يقبلها.

خلال شهر من قدومها إلى البيت، كنت أشتهي كل يوم أن أذهب إليها وأعرض عليها صداقتي. ولكن بدلًا عن ذلك قدمت لها كل ما يمكن أن تجود به عطاياي، هداياي الثمينة ومقتنياتي الأثيرة. في مرة أخيرة قبل أن تقطع عليّ هذا الجنون، صنعت لها كعكة تشبه كعكة الزفاف، أرسلتها لغرفتها مع «نينا» الخادمة التي حضرت بعد يومين من قدوم سارا.

كانت الكعكة مرفقة ببطاقة كتبت عليها «اكتسى البيت بلون يشبه وجودك يا سارا، وصار خفيفًا وكأنه يمتطي الريح.. ربما لم أسعد قط بصحبة إنسان مثلما سحرت بطيفك إلى جواري، رغم أن صحبتنا تتخللها مسافة كبيرة، وحاجز جذور، وصمت، وعرق». بعد عشر دقائق من إرسال الكعكة، سمعت صوتها على باب غرفتي يستأذن للدخول. فتحت لها، فأخذتني من يدي إلى غرفتها. وهناك أجلستني على السرير أمام قطعتين من كعكة الزفاف، وكأسين من الكولا.

هكذا بدأنا رابطة صداقة أشبه بالحياة نفسها. رابطة انفتحت فيها روحي على روحها، لتمنحني مداد السعادة، والحب، والرحمة، والأمان. كانت امرأة مشبعة بالجمال، تجلس بأي ركن بالبيت لتضفي على المشاهد المجمدة التي تخلو من الحياة لمسة سحرية تجعل الجمادات تنطق. حتى أنا، كجماد طُرد من جنة أبويه، علمتني سارا العطف والحنان وكيفية التعبير عنهما عن طريق التلامس الجسدي. كانت تعانقني في اليوم الواحد فوق العشر مرات، ربما كتدريب على شيء -يشبه الإنسانية- حُرمت منه، ولم أكن أعلم بوجوده لولاها. أوجدنا معًا طرقًا متنوعة للمحبة، كصناعة الطعام، مشاهدة الأفلام، قراءة الكتب وتعلم لغات جديدة. وبالتطرق إلى موضوع اللغات، فقد أجادت سارا العربية بشكل متقن، حتى نطقها لمخارج الحروف كان سليمًا تمامًا. تنقلنا في أحاديثنا بين تنويعات اللغات، العربية، الإنجليزية، والفرنسية. كانت سارا دائمة الحديث عن شيء غامض تنفرد به كل لغة دون الأخرى. اقتفينا أثر هذا الغموض في الأفلام، والكتب.. كل بلغته الأم دون ترجمة.

حملت سارا بماتيلد بعد شهرين من الزواج، وكانت سعيدة جدًا بهذا الحمل. تقف أمام المرآة، ترفع الملابس عن

بطنها، وتتحسس الجلد الرقيق الذي لم ينتفخ بعد. تشير إلى الجنين باسم «زيتونة». وتدخل الزيتونة بيننا في كل حواراتنا. في تلك الفترة اعتكف أخي في بيت الكتابة، لم يكن يدخل إلى البيت إلا لمامًا. وجباته كلها كانت تحملها له الخادمة.

ليس هذا فقط، بل وعاد إلى حياة العشيقات، والنساء من كل صنف من جديد. أمام مرأى ومسمع من زوجته، كان يحضر كل ليلة امرأة مختلفة. تعرضت سارا لانهيارات عنيفة بعد خلافات عظيمة معه هددته فيها بالرحيل ومعها جنينها. كان يهدأ ويخفف من وتيرة أفعاله القذرة عدة أيام بعد كل تهديد منها، وبعد ذلك يعود بنفس القوة. هاجمت والديّ بسبب سلبيتهما أمام أفعال ابنهما، ولكنهما لم يغيرا سلوكهما مطلقًا كما الماضي تمامًا. مراد إله ولا يحق لأحد التدخل بشؤون الإله العليا.

وصلت خليلتي للشهر السادس من الحمل، بعد أن فقدت كل قدرتها على الانهيار. أصبحت تشاهد من زجاج نافذتها كل امرأة تدخل وتخرج من بيت مراد، دون أي تفاعل مع المشهد، وكأنه لا يعنيها، مجرد متفرجة. حتى ذلك الوقت كانت زوجة أخي تكافح مع نفسها، محاولة الإبقاء على

نشاطها، وحماسها للحياة. تشاهد عددًا مهولًا من الأفلام، تناقشني فيها فيلمًا فيلمًا، تحكي لي بشغف عن وجهة نظرها في كل تفصيلة. نقرأ الكتب سويًا، تشغل الموسيقى وترقص، تساعد في ترتيب البيت، تحضر وصفات طعام جديدة، تجرب زراعة نباتات لا نعرفها. كل ما يمكن أن تثمر عنه حياة، تتوجه إليه باندفاع شبابها الرحيم الجميل الهيِّن. ولا أعرف كيف لم يدرك أخي الحقير الفاسد نبع الجمال والنعمة فيها!

في كل مرة راقبت فيها عيني سارا وهي تتطلع لمراد من النافذة، كنت أرى نظرة من لا يعرف طريق العودة إلى البيت. نظرة تشبهني تمامًا.

٣- حرب من أجل الحياة

نكرر الأخطاء نفسها، لا لفقر التجربة، ولا لاستعذاب طعم الألم؛ بل لأن خطواتنا القديمة تتيح لنا نوعًا فائقًا من الأمان لن يسعفنا العمر معه لائتلاف شرورٍ لا نعرفها. سارا حبيبتي، أرق وأعذب مخلوقة على وجه الأرض تغفر الخطأ تلو الآخر لأخي مراد. بمجرد عودته للبيت بمعدل يوم كل عدة أشهر، تسامحه وتصدق وعوده بالعودة إليها، وعوده بالبيت والحياة السعيدة.

على يدي عاينت عدد الخيانات والعشيقات اللاتي أهان بهن زوجته الجميلة، وأمام أعيننا في بيت الكتابة. يحضر الواحدة منهن مفصلة على مقاييس تماثيله الأدبية التي يصنعها، ولايهم أصلهن. رأيت معه كل الأصناف بداية من استايل الأميرات وحتى بنات الشوارع. ورغم كل ذلك لم تتردد حبيبته في منحه العفو في كل عودة كاذبة منه.

مع تقدم الحمل، أخذت مقاومة سارا تقل بشكل ملحوظ. انطفأ حماسها تمامًا، بالكاد تقوم من سريرها لدرجة أنها في مرة ظلت ستة أيام دون استحمام في ذروة حرارة آب. أخذتها يومها من يدها، أسندتها إلى جسدي، نزعت عنها ملابسها، وأنزلتها برفق في البانيو بعد أن ملأته بالماء الفاتر. كانت تئن أنينًا خافتًا كمن أصابته حمى، بينما أحاول تدليك ظهرها برفق بسائل الاستحمام الإنجليزي الذي تحبه. حينما اشتد أنينها وشرودها، غسلت لها شعرها في عجالة، وأخرجتها من الماء. بعد أن ألبستها فستانًا جديدًا كنت قد اشتريته لها، أجلستها قبالة المرآة، وبدأت في تمشيط شعرها الجميل. وبينما أتأمل خصلاته الذهبية الرقيقة، رفعت لي يدها وهي تقول «قصيه». أخرجَت المقص من أحد الأدراج، وقالت لي «إن لم تقصيه أنت، سأجذه أنا، قصيه حتى أذني». قصصت نصفه، فقالت بعنف «ناوليني المقص، سأتخلص منه على طريقتي». قصصته لها كما أرادت، حتى أذنيها وأنا أبكي، وأعانقها من الخلف.

قدمت ماتيلد إلى الدنيا في صباح يوم خريفي بارد. بولادة الطفلة سرى شبح الموت البارد بعنف في جسد سارا. بينما انطلق والداي في البيت كطفلين يكادان يطيران بقدوم الحفيد. أصبحا أكثر نشاطًا، أكثر حيوية، كما لو

كانا قد تراجعا بعمريهما عشرة أعوام للخلف. أما مراد، فكان متأملًا صامتًا لحدث ميلاد ابنته. يمسك الطفلة بين يديه، لا يرفع نظره عنها، حتى يأخذها أحد والديّ. سجَّلها مراد «ماتيلد» دون أن يأخذ رأي أحد. وبعد أن عرفنا اسم الطفلة، قالت سارا وهي تضحك بصوت مخيف «لقد كنت أعرف، إنها إحدى بطلاته، بطلته الأثيرة».

بإحدى المرات دخلت عليّ سارا وهي هادئة جدا، جلست بجانبي على سريري، وضعت رأسها على كتفي وهي تقول: «مراد يصنع نماذجًا بشرية من داخل رواياته، لم يحبني، كما لم يحب أحدًا قط. راجعي تاريخ عشيقاته واحدة واحدة وستعرفين».

آمنت مسبقًا بما قالته زوجة أخي عن زوجها، وكنت أربط بشكل دائم بين بطلاته وبين النساء في حياته، ولكن لأنه شخصي المفضل في العالم لم أود التصديق مهما تأكدت من الحقيقة. من الصعب التصديق أن رفيق عمرك متلاعب، مريض، حقير إلى هذا الحد.

فتحت لي سارا إحدى روايات مراد وهي تقول: «حاول

استخراج نموذج يفي ببطلته، ولكني لم أصلح». مزقت الرواية وهي تصرخ: «راقبت عشيقاته، وساقطاته، واحدة واحدة.. كلهن في كتبه، كلهن مدونات بعناية. يختارهن هذا النرجسي المضطرب بما يتناسب مع هوسه الكتابي.. حتى ابنته لم تسلم من لعنته، حينما فشل نموذجي، صنع ماتيلد يا ليلى، صنع ابنته».

كانت في حالة فوران عجزت عن احتوائها. جلست خلفها، سحبتها لتنام على ساحة صدري وكأني ألدها، وكأني ألد ألمها. طوقتها وأنا أبكي معها، ظللنا هكذا قرابة الساعتين. حتى قامت من مكانها وهي تقول: «دعينا نحضِّر شيئًا نأكله». طاوعتها وأنا خائفة من منظر وجهها المنتفخ من البكاء، وعيونها المغيمة المكسورة. هكذا تنقلت سارا بين الهدوء التام، والانفعال الذي لا يسكن بسبب مراد.

كان مراد وقحًا عنيفًا متطرفًا في جنونه. في مرة بينما كنت أتمشى بالحديقة، وقعت عيني على امرأة مستلقية فوق العشب، عارية تمامًا إلا من بعض أوراق شجرة التوت. وقفت أمامها مباشرة أتأمل فجاجة هذا الزوج تجاه زوجته، تجاهنا، تجاه كل من بالبيت.

لم تفتح الفتاة عينيها، ويبدو أنها كانت في ثبات عميق تحت شمس الصباح الوديعة. انطلقت مثل مدفع نحو بيت الكتابة، وهناك وجدته جالسًا على الأريكة يراقب فتاة العشب من خلف الواجهة الزجاجية، وفي يده دفتره وقلمه وكأنما يرسم لوحة. خرج صوتي مجروحًا كمن ابتلع زجاج مكسور: «أخبرني ما مشكلتك يا مراد؟ لماذا تزوجتها مادمت ستكمل في وساخاتك؟ أنا أكرهك يا مراد، أكرهك».

لم يلتفت إليّ، أكمل في كتابته وكأني خارج المشهد. لا تنقطع تجارب مراد البشرية، قبل يومين تعثرت بإحدى فتياته في المطبخ تصنع كوبًا من الأعشاب المهدئة. لم يكن يهمني سوى سارا ودخولها في كهف الصمت. قضيت أغلب أوقاتي معها أحاول إعادتها إلينا. ولكن على الأغلب كان الوقت متأخرًا جدًا على المحاولة. حيث أصبحتْ مجرد شبح غير متفاعل مع أي شيء حوله، حتى ابنتها، كانت العلاقة بينهما ميتة تمامًا. ولا أعتقد أنها في حالتها كانت تتعرف عليها.

رفضت ماما الاستعانة بمربية لتساعد في رعاية الصغيرة بينما تتدهور أمها. سارا نفسها استبعدت تمامًا فكرة الطبيب أو المعالج النفسي، حتى بات الوضع معقدًا ومأساويًا. وفي ليلة وضحاها أصبحت المسؤولة بصفة مطلقة عن الأم، والابنة. تأخذ الجدة حفيدتها في أوقات الهدوء واللعب، وتبقى لي في نوبات البكاء والصراخ التي دامت أغلب الوقت. كنت أتناوب ما بين غرفة ماتيلد، وغرفة سارا. وفي الوقت الذي يقتلني فيه الإرهاق ولا أعرف كيف أوازن بين المهمتين، أستعين بالخادمة من أجل الطفلة. كانت تجهدني الهواجس تجاه رفيقتي، أخشى تركها وحيدة في حزنها ويأسها. لم أكن لأترك الأمر للمراهنة على التوقع أو الاحتمالات. فلو أذت نفسها، لن أحتمل الحياة يومًا واحدًا. أصبحت سارا مطلبًا أساسيًا من مطالب حياتي. ليس فقط لأني أحبها، أو لأنها زوجة أخي، أو صديقتي؛ بل لأنها أعادتني إلى الحياة، أهدتني نفسًا جديدة بحياة تستحق أن تعاش.

حاولت الاستعانة بمراد، ولكن المحاولات جميعها فشلت. قضيت قرابة العام وأنا أرعاها. أجلت عامي الدراسي الأول في الجامعة، مفضلة الحياة برفقتها. وعام قليل عليها، ولو كان الأمر يتطلب أكثر من ذلك لفعلت أقصى ما استطعت. في هذا العام انتقلت سارا إلى غرفتي، صنعنا روتينًا

صهرنا معًا في بوتقة واحدة، تستمد كل واحدة منا خلاله الدافع للعيش من صاحبتها. نستيقظ مبكرًا جدًا قبل موعد استيقاظ الطفلة. نحضر الفطور، نتمشى حول البيت، نعود إلى الغرفة.

كنت أتبادل طوال النهار رعاية الطفلة مع ماما، والخادمة، وبابا. كانوا كُثُر مَن يريدون العناية بماتيلد، بينما لم يكن أحد حول الأم.. وكان هذا يحزنني، فلم أحب أن يأخذ أحد نفس مصيري بهذا البيت. ولكن زوجة أخي الجميلة آلت إليه. ربما انتقلت إليها لعنتي!

أثناء النهار كنت أقرأ لها كتبًا نختارها بعناية معًا، نشاهد فيلمًا، أكتب اليوميات بينما هي نائمة.

مع الوقت بدأتْ تستعيد صوتها تدريجيًا بعد أن فقدت القدرة على الكلام تمامًا. تنطق بعض الكلمات على فترات متقطعة أثناء اليوم، بعد ذلك تطور الأمر وتم تقسيمه إلى مراحل للصمت، ونوبات للحكي. حيث تقضي فترة كاملة دون أن تنطق بكلمة، وفجأة تتحدث في تكثيف لموقف ما، أو حكاية تود التعبير عنها. ربما أخافني هذا الفعل في

أحيانٍ كثيرة، ولكنه كان أفضل ما يمكن الوصول إليه.. أفضل من الصمت المطبق.

استعادت سارا أيضًا روحها ببطء شديد، وبطريقة باهتة تكاد تكون غير ملحوظة، ولكنها حدثت.. وكانت أشبه بعملية ولادة غريبة جدًا. حيث في يوم تنشط حاسةٌ ما لديها مثل النظر، فتتحول من التحديق المخيف في الفراغ إلى استكشاف كل شيء من حولها. أذكر يوم بدأت تحرك يديها بعد سكون شابه الشلل. يومها نادتني بصوت طفولي، وهي تقرب أصابعها من وجهها، تلمسها بشفتيها، تشمها، تتحسس بها شعرها، وكأنها لتوها عرفت أن هاتين الكفين تنتميان إليها. كانت عملية استرجاعها لنفسها جزءًا جزءًا، وبطريقة فردية، تشبه القيامة. يبعث عضو في يوم، فيحفز أخيه في اليوم الذي يليه، يبعث إشارة لثالث ليوقظه بعدهما وهكذا.. حتى رجعت سارا إلينا طبيعية تمامًا، باستثناء فقدانها طاقة الحياة التي قدمت بها إلى هذا البيت. بإمكاني القول إنها أصبحت مثل نسختي القديمة قبل قدومها. إنسانة عادية، تعيش أيامها في انتظار النهاية. أما علاقتها بماتيلد فظلت مبتورة. تكوَّن بينهما ما يشبه العقدة، العقدة التي صنعها أخي مراد بأكثر الطرق شناعة، وساهم في تحويل مخلوق ملائكي مثل زوجته إلى شبح بالكاد يكافح ليثبت وجوده.

كانت لدي خصلة غريبة لم أعرف كيف أتخلص منها. تبديل أماكن الأثاث بشكل مستمر، حتى إن مراد تندر عليّ ذات مرة وهو يقول: «في مرة سأجد قطع الأثاث جميعها معلقة في سقف البيت، يا ليلى المجنونة».

في إحدى المرات بعد تدهور حالة سارا، وشعوري القاسي بالفقد. بدلت أماكن الأشياء في الغرفة، بداية من قطع الأثاث الكبيرة وحتى الأنتيكات المنمنمة رغبة مني في تحرير قطعة جوهرية لا أعرف موقعها تحديدًا. بعد دقائق من المشهد الجديد، كنت أقف أمام الغرفة أحاول المشاهدة من كل الزوايا، وتعوُّد التغيير المألوف الذي أوحى لي كما لو كانت الخزانة بالداخل، داخلي.. قد تم تحريكها مسافة بيت، أو مدينة.. لا أعلم. أكرر الحركة عشرات المرات خلال أيام قلائل، دون محدودية، أو خوف البدائل الداخلية من الانعكاس على الصورة النمطية للأمان بالخارج. وماذا يعني الأمان بالخارج سوى قطعة رئيسية لن تعرف أبدًا أنها رئيسية؟

بعد أن استرددنا سارا، علقت لي على الأشياء التي تم

تغيير أماكنها. بل وحكت لي أنها كانت تفعل ذلك على الدوام، ولم تكن تترك الأثاث على وضع ثابت مدة طويلة من الوقت. وأن هذا السلوك كان يروض قلقها المستمر. وهكذا تشاركنا تلك الخصلة كما تشاركنا كل شيء..

٤- عاصم فريد

ما من كواشف أو نبوءات تفدينا كل هذا القلق الحامي، ربما ينفعنا الحنين كمرجعية أخيرة في طريقنا، طريق المرة الواحدة! ليس الحنين المستوحى من الفَلَسْ.. بل الحنين المرادف لإعادة تخليق الزمن، الزمن الذي تعرفه ويعرفك من الميلاد إلى الميلاد. حنين كل حفنة تراب درسنا سلوكها وهي تبنينا، وكل عشب راقبنا ميكانيكية ارتعاشته وهو يلحمنا ببعضنا البعض، وكل أرض اختبرنا تركيبة ماء تجاربنا فيها.. التشافي بالماضي ذاته، والعيش فيه حد تنشقه كنوع من المخدرات التي تحلل الحياة في جسد الخوف كممارسة منهجية أصيلة تدلك كيف تنجو بعد الموت بالغرق!

أحن إلى وجود سارا حنينًا موجعًا، إلى لحظات رفقتنا المتناغمة الدافئة، إلى كل ما شهدناه سويًا من انكسارات، وسعادات مجتمعة ومتفرقة. انقطاع وجهها نفسه عني سحب مني القدرة الخرافية على الحياة، القدرة التي بثتها

في جسدي منذ أيامها الأولى هنا. ربما عدت من بعدها لنسختي القديمة، لكن بفارق أني ذقت، أني عرفت.

أقلب في ألبوم الصور، أعقد مقاربات بين سارا، وماتيلد العالقة بالأسفل؛ لأكتشف للمرة المليون أن الابنة لم تشبه أمها في صفة واحدة، ربما أخذت بعض جمالها الخارجي، ولكن روح الطفلة كانت لمراد، لماما، لبابا، للبيت.

في عيد ميلاد زوجة أخي الثامن والعشرين أهديتها قطة بيضاء صغيرة. التصقت كل منهما بالأخرى بشكل طمأنني كثيرًا. فكم كانت شحيحة من حولنا تلك الأشياء التي كان بمقدورها تعزيز الحياة لديها بعد خفوتها الأخير. أخيرًا التحقتُ بالجامعة بعد العام الأول الذي فوته للعناية بها. أسبغت حياة الجامعة على أيامي نوعًا خاصًا من اللهو الدافئ، حيث أنواع مختلفة من البشر كان قد حُرّم عليّ التقرب منهم في الماضي بفرمانات ماما.

في الجامعة.. حيث كبرت وأصبحت أترك خوفي من السيدة جيهان هناك في البيت. لم أصنع صداقات متينة، بل كانت زمالات بسيطة عابرة. ولكن رغم ذلك، جسدت

نموذجًا يترك داخلي دليلًا على جودة الحياة، على إمكانية العيش.

في أحد أيامي الدراسية عرضت عليّ صديقة ما حضور ندوة أدبية لكاتب شاب في مكان قريب من الجامعة. ذهبت معها، وهناك رأيت لأول مرة عاصم، عاصم فريد. شاب بهي الهيئة، حينما تنظر إليه بزاوية جانبية، بإمكانك الربط فورًا بين وجهه ووجه آلان ديلون. لم يكن يتحدث عن كتابه الجديد، أو عن أي من كتبه عمومًا. بل كان يتكلم عن الأدب الإنجليزي، أُخذت بطريقته في الحديث عن شيء يحبه.

كان ينظر إليّ بين الحين والآخر، استغربت نظرته الفاحصة التي لا تناسب تركيزه على الحديث الدقيق المنمق عن شكسبير ومسرحياته، والتدقيق في نفس الوقت في عيني فتاة يراها للمرة الأولى. بعد مرور ساعة أو أكثر من الندوة، كان الوقت قد تأخر جدًا على موعد رجوعي إلى البيت، ولم أكن كبرت بما فيه الكفاية على العقاب الشامل من ماما وبابا معًا. لاحظت وأنا أهم بالمغادرة أن عينيه قامتا معي، وفي لحظة تخيلت أنه سيلحقني، فقد تأهبت ذراعاه، كتفاه، ورقبته، ورأسه للقفز نحوي. لسبب ما أشعرني سلوكه

بالحرج، وتمنيت ألا يكون قد لاحظ أحد.

بعد أيام من هذا الموقف، وجدته أمامي في الجامعة. بشكل مباشر وتلقائي، سكب في ساحتي عدة جمل في تعريف دقيق عن نفسه، وتبرير واضح لسلوكه: «أنا عاصم فريد، أبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، كاتب ناشئ، ومهندس مدني.. لا ألاحقك، وأعلم أن ما فعلته بالندوة، وما أفعله الآن يثير الرهبة داخلك، ولكن حدث معي شيءٌ ربما لا تصدقينه. في الندوة حينما رأيتك، وددت لو أن أقوم من مكاني وأقول لك إني أحبك. روحك كانت مطبوعة على وجهك بشكل غريب، ونزل عليّ اليقين الذي يسمونه يقين المرة الواحدة في العمر. يقين أني عرفتك وميَّزتك من هذا العالم. حينما تركتِ المكان فجأة، كنت على وشك الرحيل خلفك. وبعدها ظللت أبحث عنك في كل مكان مثل المجنون بكل الطرق الممكنة. عشت تسعة أيام من الرعب الخالص ألا أعثر عليك مرة أخرى».

قال هذا الكلام لي، ورحل بعد أن شكرني على الاستماع إليه.

في مرة ثانية بعد أسبوعين وبعد أن استوعبت قليلًا ما حدث، قابلني في نفس المكان بالجامعة، قال لي: «هل تقبلين أن أرسل إليك رسالة بالبريد؟»، فسألته: «وهل تعرف العنوان؟». أجابني بنبرة حماسية مهذبة: «في رحلتي للبحث عنكِ، عرفت كل ما أمكنني معرفته».

من ضمن ما عرفه عني والذي أخبرني إياه فيما بعد هو ميلنا كعائلة إلى النسق الكلاسيكي التقليدي في كل شيء، بل وتوارثه فيما بيننا كسلوك محافظ ومحصن للسلالة. وأول ما قاسه استنادًا لهذه المعلومة هو فكرة كتابة الرسائل. وفي الحقيقة منشأ كلاسيكيتنا لم يكن حبًا في الأصالة نفسها بل وفاءً لتاريخ القيود والعقد التي جعلت منا، بشكل أدق «مني» الإنسان البدائي الذي يفتش عن النمط الأم لكل فعل أو تصرف كصيغة رسمية للحياة. إنسان يهاب التجربة، ويخاف التطور حيث لا يفهم غير لغة العقدة الأم.

كان عاصم ذكيًا لدرجة الحرص الشديد على الحفاظ على توازن عقدي، بل ومنحها مجالًا آمنًا للتعبير عن نفسها، أو فسحة حتى تموت في سلام.

منحته موافقتي وعقدت انتظارًا منذ اللحظة التي رحل فيها. وصلتني الرسالة بعد سبعة أيام، وجدتها في صندوق البريد الذي كنت أتفحصه من ثلاث لأربع مرات يوميًا. ركضت بها إلى غرفتي الجديدة التي اتخذتها لنفسي، بعد أن أصبحت غرفتي الأصلية مساحة مشتركة لي مع سارا.

فتحت الرسالة بقلب مرتعش:

«إن أردت أن تصادق بلدة تذوق خبزها، وقهوتها. كان هذا مفتاح مروري لأي مكان يبعد عن البيت ولو مسافة ثلاثة أمتار..

أنا الإنسان الذي يهاب الداخل والخارج، ويصالح المنفى بكسرة خبز مختلطة الأصول، ورشفة سادة من حبوب سوداء مطحونة، عرفت الآن طريقة ثالثة كشفت لي عن العالم أجمع، وليس بلدة واحدة. وجهك.. وجهك الذي أزاح الغربة عن واجهة عيني، وجعل الحياة تستقر على راحة يدي.

منذ اليوم الذي رأيتك فيه، وأنا أصارع نفسي كي لا أركض نحوك بنفس اندفاع مشاعري تجاهك، فأخيفك، وأفقدك. أحاول الاتزان والموازنة، وأعتقدك ذكية بما فيه الكفاية لتدركي المجهود الشاق الذي أبذله كي أخفف لك تركيز الحقيقة. أنني أحبك، أنني أحببتك، لطالما أحببتك.. أنكِ هنا في ماضيّ وفي حاضري، وأني في لحظة التحامي الأولى بعينيك عرفت بأني كنت أنتظرك.

بكل اليقين الذي أملكه الآن -لأعبر لك عن شيء ربما لا تفهمينه بشكل منطقي- أؤكد لكِ أني سأظل أحبك مهما كان ردك، وهذا شيء لا دخل لي فيه.

في المرة القادمة، ربما سأرسم طائرًا على شكل الحياة التي مرت على وجهك يا ليلى، كي تصدقيني. لو كنتِ مكاني يوم لقائنا الأول ورأيتِ ما رأيت، لوقعتِ في حب نفسك».

صدقت كلماته، وعينيه، بل كنت مأخوذة مسبقًا بمشاعره نحوي وانجذاب كبير يسحبني إليه.

كنت متلهفة لأحكي لسارا عنه، ولكن كنت كلما أقرر الكلام، أخرس تمامًا. فليس من الرحمة أن أحكي عن قصة حب نبتت لتوها، لمخلوقة تعايش حطام الإخفاق في الحب. أخفيت عنها الأمر تمامًا، وواريت جوهرتي بقلبي مخافة أن تحرق سارتي.

تطورت قصة الحب بيننا بلقاءات بسيطة عابرة، والكثير الكثير من الرسائل المتبادلة. في الوقت الذي كان يحكي فيه عاصم بوضوح وصدق عن كل تفصيلة في حياته، كنت أنسحب نحو الداخل، لا أعرف كيف أحكي مثله، كيف أفتح له باب حياتي، كيف أشاركه مَن أكون.

ولكنه ارتضى بسكوني، وقَبِل عتمة لم أعرف كيف أطلعه عليها. وكان حنونًا بشكل أجفلني من تاريخي، ومن نفسي، مخافة ألا يكون مستحقًا للمصير العنيف الذي سيربطه بواحدة مثلي.

استمررنا على هذا النمط شهورًا طويلة، ولم أكن أتخيل أنه ربما يأتي يوم يجعلني أبوح له بأكثر عقدي سوادًا.

في ظهيرة لا تنسى، حفَّز عاصم جُرحي بأن افتتح معي حديثًا عن الكتابة. في البدء تكلمنا عن نوعية الأدب الذي يكتبه، وتطرقت لنوعية أخي مراد. ثم انتقل فجأة وبشكل غريب للحديث عني: «وأنت يا ليلى، لا تكتبين بطريقة عادية. كلما أمسكت برسالة منك بين يدي، أرى نوعًا من التجلي الحر للغة، للوصل الروحاني، لتخليق طريق المدد. تشبه كتابتك الابتهال بالحياة، حتى في خضم طلسمتك لها، وتمكينك اليأس المطلق منها.. لماذا تتهربين كلما حدثتك عنها؟ حتى خطابي الأخير الذي سألتك فيه لماذا لا تكتبين للعالم، تجاهلتيه بشيء شبيه بالخصام بيننا».

شيءٌ ما بين كلماته، ربما نبرة صوته العطوفة، ربما التوسل في عينيه، ربما أصابعه الحنونة المتشابكة مع أصابعي هي ما دفعتني للاندفاع والانفجار بهذا الشكل.

في غضون دقائق قليلة جدًا، كنت قد حكيت له قصتي مع أبي، سجن الخمسة أيام، عقدتي من كتابة الرواية، الدفتر والقلم، الخمس تفاحات، الجداريات المحفورة التي زينت بها سجني. استبدالي عملية الإجبار من أجل كتابة رواية

بتدوين اليوميات على طريقة التداعي الحر للغة، والزمن، والألم.

بعد أن أنهيت كلامي، ظل متجهمًا، مثبتًا عينيه في الفراغ، ثم بكى. ظن عاصم في هذه الليلة أننا سنبدأ عهدًا جديدًا في حبنا، دون أن يعلم أني بطريقة أو بأخرى راكمت الحقد تجاه نفسي، وأني لن أسامح هذا البوح الفاضح الذي افتعله جُرحي. من بعدها ظل يراسلني بصفة مستمرة، وأنا لا أقدر على الكتابة إليه.

حكى لي عن تجديدات البيت التي صنعها من أجلنا. عن السجاد الإيراني الذي طعَّم به أثاث البيت الكلاسيكي. عن استقباله لنباتات جديدة في حديقته الصغيرة. عن تعديله

لإضاءة المنزل بما يتناسب مع حميمية الليالي التي يحلم بها من أجلنا، ليالي نتشارك فيها الأفلام، الموسيقى، صناعة الطعام، وتمشيط الحكايات نحو مستقبلنا معًا. عن حكيم، كلبه الذي يصاحبه كرجل راشد متزن في ليالي تعثر الكتابة حتى تبزغ الفكرة. عن ليالي التمشية العشوائية التي يقوما بها سويًا.

عن أمه، الفرد الوحيد المتبقي من عائلته بعد غرق أخته فادية في النهر، وموت أبيه حسرة عليها. شرح لي طبيعة العلاقة بين أمه وبين الأرض التي خرجت منها العائلة، فهي ترفض ترك القرية والبيت على أمل أن يأتيها الموت هناك فيجدها مستعدة لاستقباله. كان يتكسر حينما يشرح لي محاولاته في استمالتها للقدوم والعيش معه في المدينة. أخبرني عن عروض العمل المستمرة التي تأتيه للعمل بالخارج، وعن رأي أمه بدفعها له للسفر والركض خلف مستقبله.

بإحدى المرات أرسل لي:«أمي تشتهي رؤياك، يا ليلى. حدثتها عنك، عن جمالك، عن سحرك، عن تبدُّل العالم من حولي لأني التقيتك. وهي بدورها كانت متلهفة للتعرف عليكِ، للحظة ما وأنا أتكلم معها، لمحت في عينيها طيف فادية، وابتسامة آملة تكسو وجهها بأكمله. ربما كانت ترجمتها الوحيدة هي أنها استحضرت فيك ما لا يمكن أن يعود.. في نهاية حديثنا عنكِ، منحتني سوارًا من الذهب مصنوعًا بطريقة يدوية، منقوش عليه «الروح تسمو، والجسد يطوف فيك.. لا تنخلع من أرضي، فتخطفك منافيك». تقول لكِ إنه سوار احتفظت به العمر كله من

أجل زفاف أختي، وإنه قد آن أوانه لكي ينطلق حرًا من فوق ذراعك.

قابليني يا ليلى، كي أعطيك الهدية. مرت ثلاثة أشهر دون خطاب واحد، دون لقاء.. ستعودين قريبًا للسنة الدراسية الجديدة، آمل أن أراكِ، ياحبيبتي».

٥- رحيل سارا

اليوم الثالث من الأيام الخمسة، والسرد متقدم بشكل غريب وكأن الرواية تكتب نفسها. كان مهمًا جدًا أن أعاين حياتي من هذه الزاوية، حيث لغة مثل الوعاء تفرض نفسها، وبوح أكثر اتساقًا يفيض مع طبيعة التفاصيل من حولي، لا يقتصر عليّ فقط مثل «اليوميات».

ورغم أني من أدفع السرد، لا أستطيع البرهان على أن ما أكتبه يبتعد عن مضمار الذاتية، أو يتسم بها. الرؤية لم تتضح بعد. كان لابد لي من الخروج عن دفاتر مذكراتي، والرؤية بزاوية الجُرح، جرح الجميع.

يحركني الشعور بالخوف بينما تتخطى اللغة حاجز فمي، لتلتقطها ماتيلد وتحبسها على الورق. تأخذ كل كلمة بعدًا أفقيًا لتأكل معها مساحة ممتدة، وكأن فكرة الرواية قائمة على الصدى. على المسافة المضغوطة بيننا كعنصرين

آنيين لزما سجنًا حداثيًا (كماتيلد) ليهدم نفسه بمعاول عتيقة (مثلي). هل هذه هي الكتابة إذًا؟

أن تفرغ نفسك قطرة قطرة، حتى إذا قطعت شوطًا، ووقفت لتلقي نظرة، فإذا بك تدهش بحقائق غير الحقائق، وألم لا يشبه الألم الذي جربته وقررت تعريته. ربما تطابق الأشياء نفسها بشكل مختلف، بنمط متزن مغلف بطبقة يمكن معها معاينة الجرح بلا محدودية، دون الموت في كل مرة، وفي أسوأ الاحتمالات بموت طفيف.

بدأت فصلًا جديدًا في روايتي بعنوان «رحيل سارا»، بينما كانت ماتيلد تقضم التفاحة الثالثة كما أخبرتني. سألتني قبل أن أبدأ «لم التفاح تحديدًا، يا عمتي؟»، فأجبتها «لم أسأل جدك هذا السؤال قط، ولكني أعتقد أنه استخدمه كنوع من التطهير. أن تحبس مع خطيئتك الأولى، وتكون هي نفسها هبتك، وخيطك الذي يفصلك عن الموت. أو ربما لم يفكر أبي في كل هذه الإسقاطات، واختار التفاح لأنه ثمرة بإمكانها الصمود».

بأواخر أيام سارا معنا بالبيت، في يوم شديد الصفاء.

استلقينا فوق الفراش ممددتين بجانب بعضنا البعض، وماتيلد ذات العامين والنصف نائمة بيننا. كانت شمس الظهيرة حنونة مثل قبلة، ترسم خطوطًا طولية تمتزج بأجسادنا. كدت أغفو بينما تدندن رفيقتي بصوتها كلماتي التي حفرتها على باب غرفتي من الداخل:

«في عالم يمكن احتماله

الرحمة فيه تعني الرحمة

ونوره عادل مهما كان وحيدًا ومغدورًا

سأرتجل الحياة

بكلمات تشبهني

بلغة شفيفة

بإيقاع متزن

ورقة تمكنني من

الرقص على العتبات».

فركت عيني، وأنا أدقق النظر في عيني سارا. كان الرحيل فيهما جليًا بصورة خلعت قلبي من صدري. استويت في جلستي، وبدأت النحيب. قالت لي وهي تمسح بظهر كفها على وجنتي:

- أراكِ عرفتِ.

- سيحرق روحي فراقك يا سارا.

عانقتني ودموعها تنساب برقة:

- الآن فقط عرفت الطريق إلى البيت.. أتعرفين؟ في عالم بعيد كان لديّ خالي وزوجته. تبنياني بعد موت أمي وهجر أبي لي. عشت معهما قرابة أحد عشر عامًا قبل أن أشعر دون مبرر أني أثقل حياتهما، وأني يتوجب عليّ الهرب.

مضى على رحيلي حتى الآن أكثر من عشرة أعوام. منذ شهر فقط عرفت أن خالي مات متأثرًا بسرطان الرئة. سأذهب إليها يا ليلى، إلى زوجة خالي، إنها أمي الحقيقية، وهناك بيتي الوحيد، ولكني أخطأت الغياب في وهم البحث عن الأصول.

تمسكت بحضنها ودموعي تخنقني:

- هل ستأخذين ماتيلد؟

هزت رأسها بالنفي وهي تبكي بعنف:

- لا أستطيع، أعرف أني أم سيئة، ولكني بالكاد أقاوم كي أنجو، ولا أظن أن بإمكاني النجاة بامتداد مراد داخلي. ربما ستدمر إحدانا الأخرى، وسنموت معًا في النهاية. يحرق روحي التفكير في مصيرها كونها ابنة لأم تقرر التخلي عنها. لم أهتد لشيء حيالها يا ليلى، لم أهتد لها. كونها ابنة لحبيب حطم روحي سيجعل الألم مستوحشًا أبد الدهر بيننا. ربما الأفضل لها أن تنشأ من دوني.

أحببت ماتيلد كما لو كانت ابنتي، حينما سمعت قرار أمها انقسمت مشاعري إلى شقين. واحد يشفق على الطفلة المسكينة التي فقدت أمها مبكرًا جدًا، وواحد يمتن للعالم لبقاء الصغيرة.

وفي نفس الوقت منعت نفسي من تكوين أي انطباعات أو دفاعات حيال الأم. ليس لي الحق في تخيل نفسي مكانها حتى. ألمها هو ألمها، مهما حاولت تركيبه على وجهي، وتخيل خياراتي من موقعها.

لم أغضب منها ولو مثقال ذرة، رغم أن هذا القرار لو صدر من أي امرأة أخرى ربما لم أكن لأقدر على الاستيعاب، وربما لرميتها بالكراهية المتصلة بعقدة تخلي أمي الدائم عني. ولكنها سارا، امتداد روحي، وأعز من اصطفيته وألفت حقيقته.

قضينا أسبوعًا نودع بعضنا البعض. في البيت، في الشارع، في الأماكن التي ترغب فيها أنيسة روحي.. كالمتاحف، والمعارض الفنية، المخابز، ومتاجر الحلوى. التقطنا العديد من الصور لنا معًا، في أغلب تلك الصور كنت أبكي، وهي تكومني في حضنها. لم أعهد سارا أكثر إقبالًا على الحياة من أيام وداعها الأخيرة، بعد سنوات من التيه والغربة والقهر في كنف بيتنا المرعب.

كانت لها طريقتها في توديع كل شيء. البيت، الأثاث، الطعام، الطقوس القديمة بيننا. تقضي ساعات كل يوم في أماكنها المفضلة في البيت، كالصالون أمام المدفأة، كغرفتنا المشتركة، كالمطبخ.

حتى إنها أعادت حشد كل اللحظات الجميلة من ماضينا

معًا، على طريقة التكرار الأخير. قضينا يومًا كاملًا من أيام الوداع في المطبخ، نصنع كل الأصناف التي نحبها. تناوبنا في عملية الطبخ، وتشاركنا كل شيء. صنعنا الباذنجان المقلي بالليمون والملح، المخبوزات بالجبن الطازج، شرائح السلمون بالليمون والثوم، الدجاج المخلي بالزبادي والزعتر والأعشاب البرية، عصير المشمش.

أما عن توديع الأشخاص. فقد بدأت بماتيلد. قضت معها نهارًا من اللعب، ومشاركة أفلام الكارتون، والأغنيات. ولأول مرة كنت أرى زوجة أخي في مشاعر منطلقة مع ابنتها، بعدما عاشت عامين ونصف من الرهبة تجاه المخلوقة الصغيرة. وكأن خيط الحرية الجديد قد منح الأم إذن خروج المشاعر دون خوف، دون عنف. ومن فرط جمال مشهدهما معًا وهما تركضان في الحديقة، وقفت ماما تراقبهما من شرفة البيت وهي تقول «أخيرًا اهتدت سارا إلى حفيدتي.. نور عيني ماتيلد».

بعد ذلك ودعت الكنة حماتها بطريقة رسمية، بأن قضيا معًا ساعتين في الحديث عن موضوع من موضوعات السيدة جيهان المفضلة عن نسل عائلتها. وأبي، تناولت معه شاي المساء مع كعك الفستق الذي صنعته بنفسها.

جاء دور مراد في النهاية، حيث تخلت سارا عن كل رابط غل أو عداوة بينهما. ودخلت عليه في بيت الكتابة، كنت خلفها أتبعها مخافة أن يقتل أحدهما الآخر. كانت هادئة ومتسامحة لدرجة تجعل الناظر إليها يعتقد أنها المرة الأولى التي ترى فيها أخي. لا ملامح غضب، لا أحقاد مبطنة، لا دوافع مكبوتة. فقط ابتسامة جميلة، وكلمات وديعة. لم يكن زوجها وحيدًا، كانت برفقته امرأة تشاركه كأسًا وسيجارة. استأذنت الزوجة لمشاركتهما الشراب. أنهت كأسها وهي ترحب برفيقة أخي، وتتمنى له يوم كتابة سعيد.

كنت أراقب ملامح الزوج المرتابة وهو صامت لا يعلق على المشهد العجيب الذي صنعته زوجته دون أن يفهم ماذا يحدث تحديدًا. لم يتنبأ أحد في البيت مطلقًا برحيل سارا، وكنت داخل نفسي سعيدة بالضربة القاضية التي ستوجه لهم جميعًا بغروب هذا الملاك من سمائنا، باستثناء ماتيلد ابنة عمري كله. أما القطة، فلزمت ركن غرفة صاحبتها حزينة ووحيدة، وكأن ريح الرحيل قد بلغتها قبل أي واحد منا.

باغتتني سارا ونحن نجهز حقيبتها بأنها تعرف عن وجود حبيب بحياتي. كنت أهم بشرح أسبابي لها، فقالت لي: «أعرفك يا ليلى، يا من تشبهين إلهة نور، أعرف أنك حملت قصتك في قلبك احترامًا لحرمة موتي في كنف أخيك».

منحتني عناقًا طويلًا، وقالت لي وهي تبعدني عن حضنها: «عيشي يا حبيبتي، امنحي قلبك حبًا يشبهك وينجيك، لن أملي عليك ماذا يتوجب عليك فعله تجاه نفسك.. أنتِ تعرفين جيدًا طريقك».

في آخر يوم قبل موعد طيارتها بعدة ساعات أهدتني فراشة فضية وثبتتها بخصلات شعري وهي تقول «هذه امتدادي، من أرضي، أعطتني إياها ماما وأنا في السابعة». كانت لحظاتنا الأخيرة في الحديقة نشرب الكولا معًا وضحكاتنا العصبية تختلط بالبكاء الأرعن. شبعت من حضنها أقصى ما استطعت، و ساعدتها في التسلل خفية بحقيبتها. حتى اليوم التالي، لم يكن يعرف أحد بأمر رحيلها. بمنتصف النهار قبل موعد الغداء أخبرت الخادمة ماما أن سارا ليست بغرفتها، وليست بأي مكان بالمنزل.

بعد اكتشافهم هروبها، قامت قيامة وجهت ماما خلالها كل الشكوك إليّ. بل وأكدت للجميع أنني أنا من شجعها على الرحيل لأحول الحياة في البيت الآمن إلى كابوس. أما مراد فلم يتوقف لحظة واحدة عند رحيل زوجته، لم يتكلم حول الموضوع. ترك أمه تنفجر كما تشاء، ولم يخرج من بيت الكتابة. وأبي كان حزينًا بشكل لم يقدر معه على مجاراة عاصفة أمنا العنيفة. صحيح أنه وجه لي الاتهام نفسه، ولكنه انسحب بعدها خارج البيت عدة أيام، ولم يظهر حتى اليوم الخامس.

لم أصمد أمام رحيل صاحبتي، كنت أذهب إلى الجامعة هربًا من بيت هجرته إنسانة أعز عليّ من روحي. غبت عن مراسلة عاصم قرابة الشهر، وتهربت منه كلما قدم ليراني في الجامعة. لم أكن في حالة اتزان مع وضع غياب سارا، لأقابل حبيبي وأعري قلبي المكسور حديثًا أمامه. حتى أتت مرة انهرت فيها وطلبت لقاءه. تقابلنا أمام الجامعة، انطلقنا في جولة بسيارته حتى توقف بي في محطة وقود، وهناك جلسنا في مقهى المحطة كما أُحِب. أحضر لنا طلبنا المعتاد الذي يخص محطات الوقود. القهوة وقالب شوكولاتة البندق والفواكه المجففة.

طال الصمت بيننا، فطلب لنا قهوة إضافية، وعدل زاوية مقاعدنا لتواجه ركن المخبوزات. ابتسم لي وهو يقول: «دقائق من تأمل المخبوزات الساخنة، وستبوحين بكل شيء، لكن رجاء يا حبيبتي إن كنتِ ستفيضين لي بشيء ما، لا تجعليني أدفع ثمنه. إن كنت ستتكلمين، وبعدها تعاقبينني بالهرب، فأنا أتوسل إليك أن نستمتع سويًا بالصمت».

بدأت الحديث عن رحيل سارا وجسدي يرتجف، وصوتي مختنق بالبكاء. تفاجأ عاصم بخبر رحيلها لأنني لم أقصص عليه معاناتها، ولا عن شكل العلاقة المأساوية بينها وبين أخي مراد، ولكن على الأغلب أنه تمكن من رسم صورة لما يمكن أن يكون عليه الزواج من إنسان مثل أخي. فوجها مراد -ككاتب وإنسان- كانا مشاعًا لطوب الأرض.

أتى رد فعله غريبًا، وربما كان توقيته سيئًا جدًا. قبض على كف يدي بيديه، وقال لي:

- «دعينا نبني بيتًا معًا يا ليلى، والآن».

لم أجد جوابًا أقدمه له، كل ما شعرت به تجاه عرضه هو الخوف.

٦- عهد الفراق

بدأنا عمرنا باليأس الذي شُبِّه لهم كونه حماسة زائدة.. صنعنا البداية من التخلي، وعقدناها في صبانا الذي انشغل بالنسيان، النسيان نحو الأعلى، النسيان الذي يقطع القدم قبل أن تخطو بقلب الغد.

انتهى كل ما كان يمكننا تجسيده كبداية، وخرجنا جميعًا من النسيان فرادى لا يعرف أحدنا الآخر، لا نسعى لشيء سوى رغبتنا في جعل آخر نهاية نعرفها هي بداية قصتنا.. في جعل قصتنا تمثلنا، تنوب عنا، تعيش الحياة التي أضاعتنا حين كنا مشغولين بتخليق بداية جديرة.

هل من المعقول أن تكون بدايتي هي رحيل خليلتي، وفراقي أنا والحبيب في صميم قصة حب مشتعلة؟

بعد كسر قلبي برحيل سارا بستة أشهر، عرفت ماما بطرقها الخاصة عن علاقتي بعاصم، طلبت مني تدبير لقاء معه. بكل بساطة قابلته، مزقته، كيلت له كل إهانات العالم في كلمات ساخرة ساحقة. استحقرته أقصى ما استطاعت. كان مشهدًا خرافيًا لا يستوعبه عقل. بعض الجمل التصقت بذاكرتي ومهما نظفت آثارها لا تزول: «من الجيد أن تعرف مكانك في هذا العالم، أنت جريء بشكل أثار إعجابي وغضبي في الوقت نفسه، من تكون يا عاصم لتحب ليلى؟».

«الأمر لا يتعلق بالثراء، بالمادة، ولا بالأملاك.. الأمر كله يعود إلى الأصول. ما هي أصولك؟».

لم أكن أعرف ما مشكلتها معه! تتحدث عن الأصول، وماذا تفعل أصولنا في رجال هذه العائلة سوى جعلهم أوساخ عاطلين، يتفننون في أبشع طرق الخيانة؟ أما حبيبي فرجل يعرف كيف يصنع نفسه، لا يعتمد على تاريخ عائلة، ولا ثروة، وفوق ذلك ليس معدمًا لنبدأ حياتنا معًا. لديه بيت كبير يسع أسرة سعيدة. ولكنها لم تقتنع بأي شيء مما قاله، لم تقتنع به كإنسان.

روعتني ماما بهذا الحدث ترويعًا هز كياني. قالت لي: «لن يربي ابنة أخيك أحد غيرك، ما من أم تصلح لها الآن سواك. أنا من صنعتك، وأنا من أقرر مصيرك. ومصيرك هنا يحوم حول هذه الطفلة ومستقبلها. ما من زواج، ما من قصص حب تافهة، إلا إن كنتِ تريدين الهروب مثل أمها الساقطة».

تعرف السيدة جيهان نقطة ضعفي جيدًا، وتدرك هشاشتي أمام البيت، العائلة، الأمومة. تعرف أنني لا أستطيع أن أحيا يومًا واحدًا دون الشعور بالأمان الذي لا أعرف كيف أستمده سوى من وجودي هنا. ولأنها تفهم هذا الضعف وتحلله، لا تهاب جنوني لأن جنوني موتور في أرضه.

لجأت لأخي، حاولت الاعتصام به من جبروت أمنا. ولكنه صدمني برفع يده بشكل مطلق. توسلت إليه كي يرحم قدري من بين يديها، ولكنه قالها لي حادة وقاطعة: «أرجوك يا ليلى، لا تورطيني فيما ليس لي شأن به.. وإن كانت أمك قد اختارت فأؤكد لك أنه لن ينقذك أحد».

رغم أن مراد كان يجعلني المتورط الأول في كل قضايا الدفاع عنه، وحمايته أمام الجميع، فإنه لم يكن يعرف سوى نفسه. مهما أحبني كان نذلًا، أنانيًا، بل وشديد الخطورة حينما يتعلق الأمر بمساحة هدوئه الشخصية، بشيء ربما يقطع عنه خيط الكتابة.

أما عاصم، فكان حبيبًا فوق مستوى الحب ذاته. مسح عن قلبي الغضب، والخوف، وأزاح كسرتنا جانبًا وهو يقول لي في رسالته: «دعينا نبدأ حبًا جديدًا في هذا الفراق. سأنتظرك العمر كله يا ليلى.. وسأعينك على حياة البيت، وعلى تربية ماتيلد أقصى ما استطعت».

توقعت أن يرحل بلا رجعة بعد هذا الموقف، ولكنه فاجأني بظهوره بعد يومين. أخذنا موقع عاشقين في كافيتيريا الجامعة على طاولة تشبهنا، طاولة مستديرة في الواجهة أمام الجميع. لم يكن يخجل مثلي من وجودنا معًا في مكان عام. حينما كنت أتلفت حولي في قلق وهواجس ظاهرة، كان يظهر منشرح الصدر مبتهجًا كأني أول حبيبة خلقها الله على الأرض، وهكذا كان يقول على الدوام: «أنتِ من أنزلك الإله بالحب إلينا، وأنتِ صنعة الحب نفسها». لم أعلم يومًا كيف كون هذه الصورة عني بينما

كانت نصف معاملاتي معه عبارة عن مزيج من الصمت والخوف الصريح.

كنت كلما انتشلت نفسي من حبه، فعل شيئًا بالمقابل يجعل قلبي يحترق من حسرتي على حبيب لن أحصل عليه أبدًا، على بيت لن يكون لنا، على فراش لن يخبئني فيه داخل جسده بينما أفرغ هلعي وعقدي الأصلية.

بعدما انتهيت من تناول الكرواسون الطازج الذي أحضره لي، شرعت في البكاء دون قدرة على التوقف. ملت برأسي على الطاولة وصوت النحيب يرتفع للأعلى. لم أعتد نوعية حنانه، وأنا أحمل حطامًا لا أعرف كيف أستقيم معها في مواجهة العالم، في السير باتزان في قصة حب لا أمل فيها. رفع رأسي، أخذني من يدي ومشينا معًا حتى وصلنا إلى مكتبة بالشارع الرئيسي، طلب مني اختيار أشكال وأحجام الدفاتر التي أتصورها في عقلي.

لم أحدد شيئًا، فانتقى لي عشرة دفاتر، ورزمة كبيرة من أوراق الرسائل. قال لي ونحن أمام المكتبة «ستكملين الكتابة على أية هيئة تحبين يا ليلى، تكتبين يوميات،

رسائل، شعر، قصة، تخترعين جنسًا أدبيًا جديدًا.. دعيني أرعى موهبتك يا حبيبتي، أرجوك لا تدعيها تخبو. إن كلماتك العادية العابرة بيننا تخرج في صيغة أدبية جميلة، حتى إنني في كل مرة ألتقيك تتملكني رغبة قوية في تدوين كل كلمة تقولينها».

أوصلني بعدها إلى ناصية قريبة من البيت لا يتمكن فيها أحد بالداخل من رؤيتي، ووعدني أنه سيكون متواجدًا دائمًا من أجلي مهما طال الوقت، واستحال الصبر. وقف ينتظر مني وعدًا مماثلًا، ولكن الكلمة سقطت مني: «خائفة».

كنت أتعجب من طيبته الغريبة، وردود أفعاله التي تحمل وداعة لا تتناسب مع الغضب داخلي..

أذكر بإحدى المرات حينما بلغ عمر ماتيلد سبعة أعوام، وكنت قد وصلت إلى المنتهى مع شعوري بالسجن تحت وطأة سلطة الأم العنيفة الكارهة لنفسها، اتصلت به وقلت له: «ليس بإمكاني الاستمرارية بهذا الشكل، وداعًا يا عاصم». حاول تهدئتي ولكني كنت مصممة وعنيفة، صمت قليلًا ثم بكى. وكانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها

رجلًا ينتحب عبر الهاتف. بكى أمامي من قبل، ولكن سماع صوت البكاء يسري بأسلاك التليفون كان شيئًا دخيلًا عليّ.

تكررت هذه العملية بضع مرات، يتصل بي وحينما يتأكد أني ليلى، يشرع في البكاء حتى صار لغة رسمية بيننا. عدة أشهر بعدها حتى أصبحت أبادله البكاء هاتفيًا، وعدت من جديد لعهد تبادل الرسائل معه.

بادرت بالرسالة الأولى في عهدنا الجديد:

«هل تعتقد أن الغربة هنا نيئة أو ذات مذاق لاذع؟

أول غربة انفطر بها قلبي كنت أقف خلالها متأرجحة بقامة نحيفة جدًا أصنع مربى توت العليق.. أما في هذه الأخيرة فقد صنعت شطيرة بسكر الخوخ المقطر بقوام ريشة محشوة بالفايبر الناعم.. قوامي أنا، أو قوام الشطيرة.. لا أعرف تحديدًا. فكلاهما واحد على أقل تقدير (غربة تعرف كيف تجمل نفسها).

بعد أن هدأت سخونة الشطيرة، تركت نجاة تسرَح على الساوند كلاود مكررة: «خايف لا الغربة تحلالك، والبعد يغير أحوالك».

ولأني أحب المواءمات الفاشلة طعنت الشطيرة لأقصى عمق للملعقة الفضية، والدموع تقف مترصدة في حلقي للقطعة المناسبة التي ستركب عليها، وتنزلق نحوك كونك مستقرًا في معدتي مع الخوف.. في حضن الخوف.

المشكلة لم تكن في الغربة ولا في البعد.. المرارة كلها حامت حول نقطة المرونة مع كل غربة لأستقر في النهاية على خط لا أعرف كيف أفاضل فيه بين كل غربة وأختها.. لا أعرف كيف أفصل فيه كل وحشة عن الأخرى فأضيع أو أعلق بسهولة. احسب معي وأكد على سطوتك.. المسافة الزمنية الفاصلة بين مربى توت العليق، وشطيرة الخوخ لم تعززها الخبرة في الألم، ولا التمرس في حسرة مقتبل العمر.

أنا هنا كما أنا مجرد مشهد متكرر بين عدة أعوام بفاصل جدار ناري أقامته الألفة مع الوحشة.. ألفة حنينك النادر أمام وحشة غربتي كلما صارت حنينًا. الحنين الذي صنع مني غرابًا يقتل وينعق ويواري الأثر دون أن يعرف كيف يموت مرة كاملة (مرة على بعضها)».

ليرد عليّ برسالة تفطر القلب:

«قبل أن يمرض حبنا بيوم، كنا أنا وهي نتسلق الزمن بمقهى بعيد في آخر مدينتنا. كنا كأي حبيبين يجيد أحدنا سحب الآخر من سمومه، رهافته، ومن تورطه في نفسه وفي الآخَر. كنَّا الخفة نفسها، نقف على الأبواب ونحن ندوس بالعمق. وحينما تقول لي: «لا يكون حبًا إن نزف أحدنا دون الآخر، لا يكون حبًا إن نزفنا». أصدقها وأرمي عليها إيماني كله.

ثمة بلاد تؤثر على تذوقك لجمالك الشخصي، وكانت هي بلدًا تجعلني أقف يوميًا أمام المرآة منحازًا إلى نفسي لأقول «هذا وجه أحبه، هذا جمال أعرفه، هذا أماني وأمان العالم معًا». وكنا نمتلك أيضًا قاموسًا لغويًا لا يضيق علينا مهما

استهلكنا مفرداته، ولكن لا أعرف كيف أو متى ركَّبت كل الكلمات أجنحة حاملة فوقها الخفة والجمال الشخصي، حتى رأيت بعيني آخر كلمة منه تطير بالأمس.. كانت الكلمة (نزف)».

رسائله كلها كانت تحفيزًا لي، تحريضًا على الحياة بينما لا أفيض عليه سوى بالهذاء الحزين. حينما كنت أتوقف عن المراسلة لأني أخاف عليه من لغتي المجنونة المنشقة اليائسة، يتوسل إليّ أن أكتب له، حتى لو ضمَّنت له العتمة نفسها في رسائل. أحيانًا كنت لا أجد ما أكتبه له، فأسرق من يومياتي بعض الخزعبلات التي أفيض بها، وأنقل له صفحة أو اثنتين من ثورة ما، غضبة ما، ميتة ما.

فمثلًا في الحادي عشر من آب بإحدى السنوات، كان الوجه الشيطاني لحبيبتي ماتيلد قد بدأ في الكشف عن نفسه، رغم أن عمرها وقتها كان مجرد ستة أعوام. يومها استدعتني ماما وكانت حفيدتها تبكي عند قدميها. قامت الطفلة، حالما دخلتُ من الباب، وصرختْ بصوت مرتفع وهي تشير نحوي «أفزعتني يا جي، وحطمت أمامي بلورة الثلج، وهددتني أنها ستذبحني إن نطقتُ بما حدث».

قامت ماما من مكانها متجهة نحو غرفتي ومعها الصغيرة، وأنا أتبعهما في ذهول رهيب. وقفت أمام مكتبي وقالت لحفيدتها: «حطمي بلورتها، أو ما تشائين هنا، وإن شئتِ حطمي الغرفة كلها». وقفت ماتيلد وهي تنظر إليّ بجسارة لا تتناسب مع كل كذبة لفقتها لي، ثم مدت يدها نحو بلورة الثلج خاصتي وقالت: «لن أحطمها، سآخذها».

راعني عمرها الضئيل على كل هذا الخبث، وكيف زيَّفت في لحظة الموقف وسبقتني إلى جدتها لتشي بي بتبديل الحقائق، وكيف لطفلة في مثل عمرها أن تستبدل حنان الأمهات الذي أجود به عليها بدهاء دخيل على البراءة.

قبل ساعة كنا أنا وهي في غرفتي حينما قدمت إليّ باكية لأن بلورة الثلج الخاصة بها قد تحطمت. هدأتها وأخذتها في حضني، حتى استقرت حالتها وقالت لي: «أريد بلورتك، يا ليلى».

تحدثت إليها بهدوء عن كون هذه البلورة هدية عزيزة على قلبي ليس بإمكاني التفريط بها، ووعدتها أني سأجلب لها

أجمل بلورة ثلج في المدينة كلها في الصباح. كانت بلورتا الثلج هديتين من عاصم، واحدة باسمي وواحدة باسمها، أهداهما لنا حينما كانت في الرابعة من عمرها.

هكذا حدث الأمر، ذهبت ماتيلد التي تحمل من الذكاء ما يكفي لتزور لجدتها حقيقة تعرف أنها ستصدقها، وتحرقني. كانت في سنها هذا تدرك نقاط ضعف كل فرد بالبيت، وتعرف كيف توجه الأمور لصالحها الشخصي.

في هذا اليوم كتبت رسالة إلى عاصم لا أعرف ماذا أحكي فيها، أقول ولا أقول، أصرخ دون أن أنطق، أبتلع الحجارة دون بلة ريق واحدة:

«أتلحف بالأغنيات القديمة فيخرج لي من العدم طريق، بينما أُلمِّع أغنية قلبي الصدئة. أعامل مشاعري على طريقة التجزئة، وجزء اللحظة الحالية هو الصمت الملتف حول عوده كشجرة غاضبة. أشد الخيط من أغنية القلب الصدئة نحو شجرة الصمت، فيقع الرمز وتنكسر الشفرة.. وأبدأ في تجربة الكلمات.

في الأيام التي أكرهها تقرر دماغي فجأة صناعة المعجزات.. ومن هنا بإمكان العالم أن يقيم بدايته فوق عتبة آب، آبي الحزين.. وليدًا مغسولًا بالتجربة السوداء والكتابات الملونة.

حينما تستقر لغتي، أوجه كل طاقتي لتلخيص وجودي في كلمة. لو يدرك العالم قيمة التشخيص المبكر لما برك فوق صدري كمقبرة ورود مجففة!

التشخيص الآن: «بعث لا يعرف أثر الولادة الأم.. ربما لا يعرف بوجود الأم نفسها».

على كلٍ لا يهم الانفصال النفسي ولا الحياة العائمة اللحظة بلحظتها، ما دامت لدي القدرة على نفض يدي من كل شيء، والمخاطرة بآخر قطعة حياة يمكن المساومة بها».

رد عاصم عليّ:

«أحيانًا يسيء إليّ كوني أحكي، وأحيطك علمًا بكل تفصيلة في حياتي، بينما لا أجد منك غير الغموض. مجرد إيحاءات مرهقة عن الألم، عن الزهد، عن أشياء لا أفهم إن كانت عنا، عن حبنا أم لا! صحيح أن ألغازك هذه أهون ألف مرة من انقطاع رسائلك عني، ولكني أخاف عليك يا حبيبتي، بينما أتخبط في تكهناتي وتخيلاتي عن ما يحدث لك ولا أعلمه.

ضعي نفسك في موقعي، رسالة آب الأخيرة، ومن قبلها رسالة حزيران المثيرة للقلق، لتزيدي فتنة حزني وحنيني إليك.. أرجوكِ يا ليلى، اكتبي لي حكيًا بإمكاني استنتاج أي معلومة منه تريحني في غربة الأجساد التي نحياها. وإن كنت قد احترمت رغبتك الأخيرة في منع الاتصالات، والمقابلات. فلا تصعبي علينا الشيء الوحيد المتبقي لنا».

كنت قد كتبت رسالة حزيران التي ذكرها عاصم في رسالته بعد قرار ماما بإنهاء دور الخادمات تمامًا من البيت. حيث كلمتها الأخيرة بعدم قدوم خادمة كل ستة أشهر، وبأني أنا من سيتولى مسؤولية البيت كاملة، بالإضافة إلى رعاية

ماتيلد.. لأني وعلى حسب قول السيدة جيهان أحتاج لشيء عظيم كي يزيح الأوهام عن رأسي، ويشغلني بما أني أنهيت دراستي الجامعية.

كان أمر كهذا حزينًا من عدة جهات، فغياب توارد الخادمات عن بيتنا حرمني رفقة كنت أركن إليها كوقود أساسي في حياتي التي حرَّمت عليها السيدة جيهان الأصدقاء والأحباب. بالإضافة إلى العمل الشاق الذي أفنيت نفسي فيه في بيت بهذا الحجم.

دونت لحظتها رسالة حزيران بينما موجة لا مبالاة فجائية تحلق حول رأسي، أمسكت أحد دفاتر اليوميات التي أهداني إياها الحبيب، وكتبت الرسالة فيها، ثم قطعت الورق، وأثر التمزق كان صريحًا ومزعجًا للعين..

أرسلتها هكذا دون تنميق للحواف الملتصقة بالصمغ:

«الثامن عشر من حزيران..

الخامسة فجرًا:

أردد الكلمة «ح ز ي ر ا ن» بغنج طفولي، وأحب جدًا أن أسميه حزيران الحزين، كنوع من التلطيف مع المخرطة الزمنية. المخرطة المقلوبة من الأعلى الذي لم تعرفه فوبيا المرتفعات في رأسي، وحتى الدرك العليل من مقعد طفولتي «الشاطر صاحب أعلى درجات في المدرسة».

السادسة مساءً:

مجرد محاولات تقريبية للفهم، للاقتراب من أكثر صورك المهزوزة ثباتًا. والله أي صورة ستفي بالغرض، أي أثر سيدلك على الخيط المبروم حول جثتك الخفية. مزيد من اليأس، وسأؤمن حالًا بالريح كونها عناق الأم متفجرًا من عناق الحبيب.

السابعة بعد فنجان قهوة رديء:

لم لا تحدث القضايا الكبرى على طريقة الطفولة! كنسمة باردة في ظهيرة حارقة، أو كمذاق البطاطس المحمرة على أرضية المطبخ الرطبة بعد حصة الرياضيات. أو كقبلة في الهواء بين كلب وكلبة حتى! القضايا الكبرى نَجِسة، ولا تفهم غير الطرق القاسية «لتُحَفِّظ مخك التخين الدرس».

الثامنة بعد فنجان قهوة بمذاق رماد الفرن البلدي:

لا أتوقف أبدًا عن تجربة أنواع القهوة الرديئة في المواقف الرديئة. أؤمن بفرضية محاربة الخراء أو مواكبته بخراء من نفس درجته.. هكذا تريحني الأمور وأتماشى مع كل موقف مهما بلغت خطورته.

العاشرة لم تأتِ بعد:

ولكني أعتقد أني سأشتاق إلى صوتي المحفوظ في علبته منذ انحرافين زمنيين..

ربما سأغني عن الصلابة التي يبدو عليها حنيني أثناء كل فقد. حنيني الذي يؤخر الدمع لغير مواسمه، ويحتفظ بلمعته دليل كِبرٍ يمحو خلفه كل أثر قابل للاقتفاء.

منتصف الليل:

سأكون على قمة منحنى الأمل والتفاهة؛ لأن الغد سيحمل لي المزيد من التجارب السيئة».

٧- موت

الثانية بعد ظهيرة دافئة، حيث المشهد لا يستوجب حضورًا موسيقيًا.. فقط الدموع الساخنة بصحبة كوب شاي يدفع الحزن على طريقته، ولحين انتهاء الشاي، أحاول تفريغ محتويات البيت بالشارع..

أعادوا طلاء المبنى الأصفر الكبير المواجه للبيت، ورائحة الطلاء تحاوط المشهد الحميمي وصوت الحياة الرعناء يركل دماغي من الخلف: «انتشل المتعة، وعايش الخوف، وتشَرَّب الألم كاملًا أيها الأحمق الصغير، وإياك وخداع النِسَبْ التي يصِفّها القدر في حسابك».

ينتهي الشاي ولا أحسب حساب النسب، لأشعر بخطاف الخوف بمعدتي دون أي أثر للألم، أو المتعة التي نوهت بها الحياة. ربما مع مشروبي المفضل القادم يتراجع الخوف، وتتعدل النسب بشكل ملائم لقيلولة آمنة مكافئة لنسب

الحياة.

اليوم تركت ماتيلد تأخذ قيلولة لحين انتهائي من الركون لفترة سكون قصيرة بعد ساعات كتابة مكثفة ومطولة. لم تقاطعني قط، كانت تدون كلماتي بصمت وحرص دون الرغبة في تحريك بواعث جنوني. فكرت اليوم بالحكي بشكل أكثر عمقًا عن علاقتي بعاصم. أعتقد أني أحتاج لذلك.

تجسدت علاقتي بالحبيب -خلال فراقنا الطويل- في مجموعة من المواسم أطلقنا على كل واحد منها لقبًا بعينه. كان هنالك مثلًا موسم الدمع، موسم الخريف، موسم الزهر، موسم العشب. أما الموسم الذي سأكتب عنه الآن هو موسم الوفرة، حيث بذلت قلبي فيه رغمًا عني.

افتتحنا الموسم سويًا برسالة مني بعد غياب رسائلي مدة تزيد عن العام:

«بدأ الحنين هذا العام في وقت مبكر جدًا عن كل عام.

منذ مطلع حزيران وهو مقيم في أروقة بيتي، رغم ميثاق فراقنا الهادئ «ألا يتزاور حنيننا إلا في مقتبل تشرين».

أحدنا أحدث ثغرة في العهد القديم، وقرر مكوث الألم فترة أطول. أو ربما لم يسع البعاد موسمًا واحدًا فانفتح ليأكل زمنًا جديدًا.

في كل عام كان ينبت في بستان انشقاقنا زهرة نادرة، هل تعرف كم عدد الزهور حتى الآن؟

ولأن هذا الاتساع الأفقي لجنة الفراق يأكل المسافة بيننا، ولا أريد أبدًا أن نختزل الوقت ولا الخطوات، أو أن يأخذ وداعنا مسمًى آخر غيرنا.. سأكتبك حتى يكون بمقدرتي ضم البستان إلى متحف الكلمات المحنَّطة، فلا يغريني في كل حَلفٍ جديد بالوثب داخل قلبك.

بإحدى أواصر تشرين الأولى حينما استنكرتَ عليّ غيابك التام بين كلماتي حد الفقد قلت لك: «إما أني كتبت عنك كل شيء، أو أني لن أكتب عنك على الإطلاق».

والغريب أني لم أكن أعرف أنا الأخرى الحقيقة حتى اكتشفت ببكور الذمة المستحدثة أنني أكتب عنك بكلمات من بخار.. لا، ولن يدرك ماءها أحد غيري.. حتى أموت.. حتى نموت يا حبيبي معًا بنفس القوة التي وُلدنا عليها».

لأول مرة في تاريخنا معًا يغضب مني حد عدم الرد على رسائلي. قال لي في اتصال أخير: «أحيانًا أعتقد أنك تصنعين لا مبالاة ستقضي علينا معًا، لن تحميك برودة مشاعرك، بل ستقتلك».

مرت أيام من بعدها لم أفارق غرفتي، كنت أشعر بالغضب ليل نهار مع مزيج من الحسرة والاشتياق إليه، دون القدرة على نزع قشرة الحاجز الذي أقمته بيننا، لأحكي له عن صراعي المجنون الذي أحارب به الفقد.

أذكر أني مرضت في هذه الأثناء مرضًا شديدًا كنت فيه وحيدة وضالة، كتبت له رسالة مدفوعة بالشوق بعد أيام من تشويش الألم الجسدي عليّ:

«كنت تحت تأثير هلاوس الحمّى، وعيناك تطل من وجه أحد أبطال محمد خان. البطل الذي تعرفه جيدًا، وعلى الأرجح تؤكد على وجودك خلالي في ملامحه. لو تصدقني.. أطلت رائحتك من الشاشة السوداء العريضة، وطوقت الغرفة حتى صار منتصف الليل شبحًا يفرد جسده الطويل على السنين بيننا. الشبح الذي يذكرني كلما هممت بصرفه «بإمكانك التحكم بالحمّى، وبي».. ولكن لمرة وحيدة تركت الشبح، والأعوام، وهلاوس الحمى، والبطل -الذي لا يعرف نفسه- يبيتون معي في الغرفة.

لا تعاتبني ثانية على طريقتي في مواجهة الألم، لأني لم أعد أقدر على حمل العتاب، والحب، والفقد، والحنين إليك على كتف واحدة. أصبحت بخير، وخرجت اليوم من غرفتي بعد أيام طوال. عليّ الآن أن أقطع كتابتي إليك لأبتلع الفوضى التي خلفوها في البيت في غيابي.

بقاياهم في كل مكان. معلبات البيتزا، بقايا ساندويتشات البرجر، معلبات العصائر الفارغة.

بدلًا من قسوتك عليّ، تعال وساعدني في تنظيف بيت بمساحة ألف متر مربع يبدو في هيئته القذرة الآن كبيت أشباح».

في نهايات موسم الوفرة كتب لي: «هل تعاقبين الحب فينا يا ليلى؟ أريد تسمية واضحة لما تفعلينه معنا! إن كان هناك من صنع حاجز فراق مؤقت بيننا، لم تؤكدين في كل تفصيلة على تمكين أسس الحاجز وترسيخها؟ أحيانًا يخيل إليّ أنك غاضبة مني على حبي لك، وتعلقي بك، أو أنك غاضبة على الحب نفسه. ألا زلت لا تغفرين لي مقابلتي لمراد؟

لا أعتبرها مهانة كما ترين يا حبيبتي، لن أتردد في أن أطرق كل الأبواب من أجلك، من أجلنا. أنتِ حتى لم تخبريني ما فعله معك لتكوني بكل هذا الجمود أمام رسائلي».

جاء ردي عليه سريعًا: «ما الأزمة في أن نتلاقى بكل الألفة كغريبين على حدود شرفتين. تكفيهما تحية صباح،

وصحن كعك متنقل بينهما! لا أحنق على عدوي حتى أغضب عليك. دعنا نحول الغضب إلى صفة تخص الزمن وحده. صفة المحو. أن أتلاشى كحالة لها أبعاد الماضي، وأن تتبدى أنت في هيئة عنصر من الحاضر أقبله ولا أقبله.

أقول لك إن تعنتك بالحالة الزمنية لا يفيد البركان المتجمد في رأسي..

إن كان في حصيلتي يوم واحد لأعيشه فلا أريد أن أهدره تحت مسميات أرضية كالنسيان أو الغفران. يوم واحد يكفيني كي أعيش وأنا ألوح لك من بعيد بابتسامة لا تفهم حالتك الزمنية، وتتقبلك في صورتك الآنية العادية. أنا أؤمن بالولادات الجديدة، ولكنك تفضل الموت السعيد.. يا حبيبي.

أما عن مراد، فيكفيني إخبارك أنه حقير لدرجة أنه تسبب في منعي من الخروج من البيت عامًا كاملًا بتحريضه لماما. نعم يا عاصم، لقد كنت حبيسة البيت، لم أخرج ساعة واحدة خلال اثنى عشر شهرًا خارج البوابات. أما عن رسائلي، فقد زهدت في الكتابة إليك وفي الحب نفسه.

جرب أن تكون مكاني يومًا، وستكره العالم أجمع، لا الرسائل فقط».

أنهيت موسم الوفرة برسالة مني، بدأ هو بعدها موسمًا يغرد فيه وحيدًا استمر خلاله في الكتابة إليّ ثلاثة أعوام كاملة دون انقطاع.

قالت رسالتي، رسالة نهاية الموسم: «وكنت أنت مدخل أغنية «لا إنت حبيبي». الافتتاحية الموسيقية نفسها التي تقسم على كوننا تفرعنا من جذر الأرض ذاته. ليبدأ بعدها نفي القصة كتلة واحدة بصوت انكسرت هيبته «قصتنا الغريبة شلعها الهوى». لست مثلك أصدق الكلمات؛ لأني أعرف جيدًا كيف يمكن طبخ وجبة قياسية للحب بمكونات رديئة.

لأني أعرف كيف أخبئ الولع تحت منفضة غبارنا القديمة لتُخرج لك الشعور الأول كما لو كان ساقطًا لتوه من عُلبته، لأني أعرف كيف أكتب الحب صادقًا بكل كذبة أملكها.

صدق الأغنيات حتى تنتهي، والوقت حتى يموت.

وأنا.. صدقني فقط يا حبيبي.. في مطلع الأغنيات».

حينما مضى موسم الوفرة كان عمر ابنة أخي سبعة أعوام، أتذكر جيدًا كيف امتثلتُ مثل كلب مطيع لنمط الحياة في البيت بعد أن أصبح تحت طوعها. بشكل يومي، وبعد أن أعد وجبة الفطور ونجلس إلى المائدة أنا وماما وهي، تسأل الجدة حفيدتها السؤال المقدس «ماذا كان حلمك يا نور عيني؟».

كانت الطفلة بارعة في تأليف الأحلام، وبخاصة الشريرة منها. بمجرد أن علمت الصغيرة كيف يمكنها استغلال هوس جدتها حيال هذا الأمر، وصلت لأقصى ما يمكن بلوغه.

تحكي الحلم المُؤَلَّف، فأركض بأمر من جدتها نحو كتب تفسير الأحلام التي تشغل رفًا كبيرًا في مكتبة البيت. أفسر لهما الحلم الذي يرجع لصالح ماتيلد في كل مرة.

ظلت الصغيرة من السابعة من عمرها وحتى الرابعة عشرة تلهو بنا في لعبة الأحلام، ولم تنته اللعبة حتى سأمَتْها.

بإحدى المرات قالت إنها حلمت بشبحين عجوزين، يلقبان كلير وهان. قالت إن الشبحين اعترضا بشكل واضح على تجول عمتي ليلًا في البيت، وقالا إنهما لا يحبان طبخ السمك، حيث يدخلهما في حالة غضب.

عرفَتْ على الدوام ماذا تقول وماذا تفعل، لم يذهب شيء عندها هباءً. كانت تكره السمك، ولما كانت تعلم أن ماما تؤمن بالأشباح، وتصدق في القوى الخفية، جعلت القرار الرسمي لمنع دخول السمك إلى البيت يتأتى مباشرة من العفاريت. ظلت تنسج من خيوط مخاوف وهلاوس وهوس جدتها وجنونها أحلامًا، تلقيها في حجرها كل صباح.

مرت الأعوام في البيت على وتيرة هادئة، سجن دون تعذيب، باستثناء فترات جنون الصغيرة حينما تضعني، أو تضع أحد أصدقائها في رأسها فتبدأ سلسلة مؤامرات يشيب

لها شعر الرأس.

استمر أبي في قطيعته لي وكأنه لا يراني. أما علاقته بحفيدته فكانت تشمل الهدايا،

المفاجآت، كل ما يمكنه أن يمنحها قيمة مادية ترضيها. وعلاقته بماما ظلت على حالها. لم يكن يتناول الوجبات معنا، وأغلب أوقاته كانت بالخارج. ومراد بالكاد يدخل البيت. قضى أيامه كلها بين بيت الكتابة، وبين أماكنه السرية.

لم أقدر وحدي على صد هجوم ماتيلد ضد كل مخلوق يقع في طريقها. حتى إن هناك ذكرى مؤلمة تعصر قلبي كلما تذكرتها، ولم أكتب عنها قط في يومياتي. القطة التي عاشت معنا في البيت بعد رحيل سارا، مزقتها ابنة أخي بطريقة وحشية لدرجة جعلتنا نعتقد أن كلبًا أو حيوانًا مفترسًا هو المجرم. ولكنها وقفت أمامنا بعد أن دفنا القطة المسكينة، وهي تقول: «أنا من تخلصت منها». كان عمرها وقت ارتكابها الجريمة البشعة تسعة أعوام. وكنت قبلها بزمن طويل أهاب شرورها، وأضع عيني وسط رأسي طوال

الوقت.

حاولت خلال تلك الأعوام أن أجعل عاصم يزهد حبنا، ويقطع الأمل فينا. ولكنه لم يكف عن محاولات إثبات محبته لي. حتى أتت فرصة حزينة انتهزتها بأسوأ طريقة كي أدفعه نحو الحافة فيكرهني.

أخبرني في رسالة ما بخبر موت أمه، فلم أخرج عن غيابي، ولم أرسل له تعزية، الصمت الوحشي في مواجهة ألمه الصاخب. زلزل كياني عدم وقوفي إلى جانبه. كنت أتخيله وهو يبكي رحيل أمه، وهو يحطم كل شيء غضبًا من الحبيبة القاسية. بكيت لأيام طويلة وشاركته الحداد من خلف الغياب. قلت حتمًا سيرحل إلى الأبد بعد هذا الحزن الكبير، ولكنه أخذ استراحة ستة أشهر، ثم كتب لي رسالة يخبرني فيها أنه سيسافر إلى فرنسا، حيث قبل فرصة عمل في شركة هندسية تابعة للشركة التي يعمل بها. وأرفق بالرسالة مفاتيح البيت، بيته. وقال لي في آخر كلماتها: «هذه مفاتيح بيتنا، بيتك يا ليلى.. احتفظي بها وبالبيت لآخر الزمان». حتى في أقصى لحظات غضبه مني كان غفورًا رحيمًا. رحل وترك لي الغضب والحسرة.

ظننت أن بسفره سيحل العهد الأخير بيننا، ولكنه كان يراسلني بين الحين والآخر، يطمئن عليّ، يخبرني بإيجاز عنه وعن تغير طباع حكيم في الغربة. عن نجاحاته في العمل، وفي الكتابة. وأنا الأخرى بادلته رسائل قليلة. وهكذا تحولت العلاقة بيننا لشيء منزوع العاطفة تم تقليصه حتى أصبح بلا مسمى، كصديقين قديمين، يتبادلان أخبارهما بحرص وتقتير حكيم.

في ليلة احتدم الخلاف بيني وبين ماتيلد، لاكتشافي إحدى ألاعيبها للإيقاع بصديقة لها في المدرسة الثانوية عن طريق تلفيق الكذبات بخصوصها لإبعاد حبيبها عنها، وتعريضها للنبذ من الجميع. كانت مكالمة طويلة شرحت فيها أصول المؤامرة، لمجموعة من الصديقات وظفتهن جميعًا من أجل الإيقاع بالصديقة. حاولت في أول الأمر معها بهدوء، ولكنها هاجمتني، وطردتني من غرفتها بعد أن اتهمتني بكوني متسلطة تتسول على حياة الآخرين. تركتها وذهبت غاضبة إلى أخي في بيت الكتابة. كان جالسًا على الأريكة ممددًا ساقه اليسرى التي تعرضت للكسر قبلها بأسبوعين. حينما لمح وجهي قال لي:

- أرجوك يا ليلى، لست في مزاج رائق لأستمع إليك عن مشكلات البيت.

- ليست مشكلات البيت يا مراد، إنها ابنتك.

- ماتيلد كبيرة بما فيه الكفاية لتتدبر أمرها.

- طفلتك تحتاجك.. ما من رادع لجنون سلوكها.

- أنتِ، وماما، وبابا.. ألا يقدر أحد منكم على مواجهة الأمر؟ أنت تعرفين شكل العلاقة بيننا، لن تستمع إليّ.

كنت أهم بالمغادرة حينما طلب مني مساعدته للانتقال من مكانه. نظرت لعكازيه إلى جانبه، وقلت له:

- بإمكانك مساعدة نفسك.

خرجت من الباب، وقفت عدة ثوان، وعدت إليه مجددًا. ساعدته على النهوض، أجلسته على السجادة أمام المدفأة مباشرة، مددت ساقيه وفردت فوقهما البطانية، كما طلب مني.

قال لي:

- ناولني زجاجة المارتيني وكأسًا، من فضلك.

أعطيته الزجاجة والكأس، ووقفت أنظر إليه في غضب يكاد يفتك بي.

تجرع أربع كؤوس بسرعة رهيبة، ثم نظر إليّ وقال:

- لا أعرف لم تحملين الدنيا فوق رأسك على الدوام، حتى إنكِ فوَّت عليك حياتك.

سكت لحظة وأخذ يكررها من جديد:

- فوَّت حياتك، يا أختي الحبيبة.

وقفت في مكاني أراجع غضبي، فسقطت ذاكرتي في مؤتمر صحفي له منذ عشرة أيام، كنا نتابعه على شاشة التليفزيون.

قال فيه مراد حينما سأله أحدهم عن إحدى شخصيات روايته الأخيرة: «في الحقيقة أنا مدين لأختي ليلى بوجود هذه الشخصية، استلهمتها كاملة منها. فما أفظع أن تضيع عمرك في الفراغ. كنت أقف بشكل مستمر أمام خيار ليلى في عدم اختيار حياة لها، وشعوري تجاهها بالعجز حينما أرى حيوات الآخرين من حولها تنساب مثل دفق ماء، وحياتها هي لم تولد أصلًا».

بعد قراري بتجاهل الأمر، تكلمت:

- رغم كل ما ارتكبته من شناعات تجاهي، تجاهنا جميعًا. اخترتُ على الدوام أن أحبك، أن أفصل مشاعر الغضب عنك. لم أحبك فقط، بل رأيتك إلهًا.

كنت على علم -بصفة مستمرة- بكونك إلهًا حقيرًا، أنانيًا، ومختلًا. ولكني عودت نفسي على الإخلاص لك مهما ترسخ يقيني تجاه ظلامك اللعين. حينما ذكرتني في المؤتمر الصحفي بهذا الشكل القذر، لم أتفاجأ، ربما كنت بحاجة لهذا الموقف كي ألعنك إلى الأبد، وألعن فكرة كونك أخي.. أنا أكرهك يا مراد.

نظر إليّ من خلف الكأس نظرة لا مبالاة كالتي كان يحرق بها سارا:

- وكأنني أخطأت يا ليلى في حديثي عنك، أوليست هذه هي الحقيقة؟

- أية حقيقة؟ حقيقة أني أفني حياتي في كوني أمًا وأبًا

لابنتك؟ أم حقيقة خذلانك لي أمام شهوة أمك في سجني هنا، وحرماني من حياتي مع حبيبي؟

- لا ترسمي دور الضحية، وجودك هنا جزء من إرادتك، مهما تعاظمت القوى الخارجية. ألم يكن بإمكانك الهرب إن أردتِ؟ هل كان ليمنعك أحد؟ لم لم تفعلي مثل صديقتك، سارا؟

- لا أعرف على أي شيء تحديدًا يجب أن أكرهك! أنت أسوأ كابوس يمكن أن يحدث لإنسان، حتى إنك وهبتنا نسلًا شيطانيًا مثلك. ربما كانت أمها محقة في هروبها منكما.

في لحظة انطلق صوته مثل مدفع:

- اخرجي من هنا.

أمسك زجاجة المارتيني، وحطمها داخل المدفأة. زحفت

النار نحوه في لمح البصر، اشتعلت البطانية، وهو يصرخ ويتلوى غير قادر على الحركة من ساقه المكسورة. وقفت في مكاني لا أنطق، لا أتحرك، لا أعرف كيف بإمكاني التصرف حيال الموقف. بضع ثوان ظللت فيها متخشبة، حتى صرخت: «حريق، حريق».

سمعت أصواتهم قادمة من البيت، وكنت وقتها أحاول إطفاء الحريق بمفرش من الصوف، ولكن ماذا كنت أطفئ؟ مراد كان مشتعلًا بالكامل، والستائر التهمتها النيران، وبدأ معها تآكل كل شيء بالغرفة.

تمكن أبي من سحب أخي نحو الخارج بعد أن غطاه بالكامل بغطاء كبير. مرت الأحداث سريعة مثل البرق، ظل مراد أقل من ثمان وأربعين ساعة بالمستشفى حتى بلغنا الأطباء خبر موته.

مرت أيام العزاء غريبة علينا جميعًا. ماتيلد كانت مثل حجر. تأكل، تلهو، تسهر مع أصدقائها. وكأن كلب الجيران قد مات. أمنا لم تنطق بكلمة، حبست نفسها في غرفتها. والأب اختفى من البيت.

بعد أسبوع من موت مراد، قالتها لي ماما صريحة أمام ماتيلد: «لا أستبعد كونك مفتعلة الحريق، وقاتلة أخيكِ». لم أدافع عن نفسي، لأني كنت أعرف ومراد يشتعل أمامي أنه سيتم اتهامي في كل الأحوال. أما بابا فقد تحدث معي للمرة الأولى بعد قطيعة سنوات طويلة. وطلب مني مرافقته إلى غرفة السجن. وهناك دخلنا سويًا. جلسنا معًا إلى الطاولة وبدأ يتكلم: «وكأننا لا نملك سوى تعذيب أحدنا الآخر، في عملية طويلة ومرهقة من تمرير العقد. لن تصدقي إن أخبرتك أني حاولت صنع بيت سعيد، وأبناء أصحاء. كنت أعتقد أنك لا يمكنك الاهتداء إلى نفسك إلا بهذه الطريقة الرادعة، سواء بالسجن، أو بالقطيعة.

ومراد الذي عرف طريقه منذ اللحظة الأولى، استغل كل شخص وكل شيء في هذا الطريق، بمن فيهم أنا. تخيلت أن المنع أو الوقوف أمامه سيهدم أسطورته التي شيدها من حولنا مثل معبد مقدس. وفي الحالتين، وسواء صدقتِ أو لا، كنت أبتغي حمايتكما. مهما بدا كلامي غير منطقي، لم أملك نية قط سوى الحماية. ولكن لما رأيت كل شيء يتكسر نحو الفشل، انسحبت وتركت الدفة لأمكما».

قال بابا هذه الكلمات، وطلب مني الخروج من الغرفة، وشرح لي كيفية الذهاب إلى غرفة التحكم المجاورة، والضغط على زر التشغيل الرئيسي ليغلق عليه السجن مدة خمسة أيام.

قلت له «سأحضر لك الطعام أولًا». أخرج لي من جيبه تفاحة، وهو يقول: «هذه ستفي بالغرض». تفاحة له، في مقابل خمس تفاحات لي في كل مرة. هل كان يشرح لي بطريقة ما أنه منحني مزايا حرّمها على نفسه؟ مزايا بفارق أربع ثمرات شهية.

فعلت مثلما طلب مني، ضغطت الزر، وخرجت مسرعة لأرى ميكانيكية غلق جدران السجن، حيث التف الجداران حول بعضهما البعض، وأُغلقا مثل بوابتين متوازيتين بفارق مسافة محدودة جدًا.

قبل أن أتركه وأرحل استوضحت جليًا الأماكن المتفرقة في الجدران من الخارج التي توصل الصوت. اقتربت من واحد منها وقلت له «لماذا شيدت هذه الغرفة يا بابا؟». ظل

سؤالي معلقًا بلا إجابة.

انقضت أيام السجن وظهر بابا بيننا في البيت. حضرت له الطعام، وحمامًا ساخنًا. خرج من الحمام، وتناول العشاء معي لأول مرة على طاولة المطبخ. انتهينا، ورافقته إلى غرفته. وفي الصباح لم يستيقظ.

لم أبك بابا مثلما بكيت مراد. ربما لأني أحمل عقدة شعور بالذنب تجاه اللحظات التي تصنمت فيها أمام مشهد الحريق، اللحظات التي كانت لتصنع فارقًا في إنقاذه، وإبقائه حيًا. ربما ساهمت في حرقه، وقتله.. ربما قتلته مثلما تقول ماما.

٨- نيران ماتيلد

«أخرج أصابعي الناعسة من الحلم وأكتب في نوتة الهاتف بعد أن ألونها بالروز «عقلي رطب، وقلبي جاف»».

هذا تحديدًا ما أملاه عليّ الحلم معك.. أن ترافقني في حلم كامل بتيشيرت أزرق وبنطلون أسود، وتقف على مقربة ثلاثة أمتار من حدود وجهي البارزة. تراقبني دون أن ترفع عيناك عني لحظة واحدة، وأنا أيضًا أردت ذلك، الترقب والقرب والشبع من وجهك.

ولكن الذي حدث -على طريقة الواقع ولم يحدث في الحلم- هو أن قبلة بيننا قد نشبت، وأني لامست شفاهك الناضجة النقية ذات اللون المتورد الذي يشبه مرطب الشفاه بالكرز الذي كنا نأكله سويًا في طفولة عشقنا الشابة المجنونة، أو في شبابنا الذي ما عاد طفلاً.

قبلة طويلة ممتدة، القبلة فيها لم تكن تشبه القبلة في عقلي أو في عقل أي شخص أعرفه. قبلة جسَّدت ارتخاء عضلة ما، أو تمدد ربما. الأكيد أنها لما تكن رغبة، كانت استشفاء يقول لي «كم أفتقدك».. وبين قبلتنا التي طالتني دون أن تحدث، دون أن تقترب مني بمقدار شعرة، عانقتك وشممت رائحة جسدك، وبالمناسبة كانت رائحتك زرقاء تمامًا ولا تسألني كيف يمكن للرائحة أن تكون زرقاء!

أثر القبلة على فمي، وساحة صدرك التي فصلتني عنها الثلاثة أمتار كانت نائمة فوق ساحتي مع الاحتفاظ بقوانين الفيزياء والمسافات الكاملة. والآن وبينما أنا على سريري أبكي في مدينة بعيدة عنك، أفتقدك إلى الحد الذي يُكَسِّرني ويدفعني لكتابة قصة عن أبطال يشبهوننا ولا يحملون أسماءنا كي لا يُسقطهم أحد علينا ويتهمونني بك، ولكنك بالطبع ستعرفهم وتخرجهم من بين كل قصص العالم، وستدرك حدوث القبلة والعناق مهما زيفتُ الأحلام وحكايات الحب والحقائق..

ستعرف كل شيء، وستعرف كيف تخرج الحرف الوحيد الصحيح الذي يعنيك أنت ويعني شعوري بك من بين

ملايين الكلمات».

قمت من نومي فزعة والبكاء يهجم على قلبي، أحضرت الدفتر وكتبت الحلم، سكبته كاملًا على الأوراق. خفت أن أفقده فيه هو الآخر، الإنسان الوحيد بالعالم الذي جعلني أشعر بالقيمة في حياة انعدام المعنى التي عشتها في هذا البيت.

اليوم الخامس لماتيلد في سجنها سيكون الذكرى العشرين لقصة حبنا التي حطمتنا. لا شيء بإمكاني أن أقدر به حجم الألم الذي تشعر به امرأة بلغت لتوها عامها الثامن والثلاثين، بعد أن فوتت عشرين عامًا كاملة في فراق عفي مثل سجن!

أنفض الدفتر من بين يدي، أرتجل وقفةً لأكتشف نفسي أمام المرآة. حسنًا، هذا هو الجمال العطِن الذي تم تخزينه في قبر حتى تحلل.

أول جملة قالتها لي ماما حينما فاتحها عاصم في مسألة

زواجنا: «لم أنجب هذا الحُسْن وأربيه في بيتي وأصنعه على عيني، كي يتلقفه أحد من العامة.. هل تعي قيمة بهاء الملوك. ليلى ملكة لن أمنحها لراعٍ».

ملكة سجينة غرست بذرتها السيدة جيهان في هذا البيت، سحرها أسود مسموم. فتنة مِلك ماما، رهن يديها، لا تملك متنفسًا يبعد شبرًا عن جبروتها العنيف الذي ينكر لغة الأمهات، ولا يتعرف على نفسه إلا كسجان، كفرعون، كإله غاضب.

على ذكر سيرة غضب الآلهة، كنت أجلس بإحدى ليالي شباط لعام ما في غرفة المدفأة أطالع كتابًا، حينما دخلت ماتيلد حاملة بين يديها مجموعة من ألبومات الصور. عرضت عليّ تناول القهوة معها، فوافقت. جلست على الأرض أمامي مباشرة وهي تتصفح أحد الألبومات. ظلت ساكنة عدة دقائق ثم قالت:

- بالإمكان تتبع التوتر في علاقتك بجدتي من خلال الصور يا ليلى.

لم أعلق على كلامها، فتابعت:

- أم أنه توتر أزلي وُلد معكِ؟

أجبتها في برودة:

- ما رأيك أنتِ؟

- رأيي لا يهم، المهم هو الصدق، الحقيقة.

تكمل تقليب الصور، وتعلق على صورة ما:

- جدي لا يمكن تكوين استنتاجات من ملامحه الصماء. ومراد هو مراد في كل مراحله العمرية. في أي صورة يكون بها يمحي الوجود بالأشخاص من حوله. أتعجب دائمًا من كونه أبي، لا أراه أبًا، أخًا، زوجًا، ابنًا.. لا أتعرف عليه في

رابطة من أي نوع.. إنه تكرار نفسه في تناسخ لا نهاية له.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تصرح فيها بفكرة ما عن أبيها. لطالما كانت علاقتهما قائمة على المشاهد الحياتية الشحيحة، دون انطباعات أو آراء.

ساد الصمت في الغرفة لحظات، وفجأة قالت:

- نعود إليك ثانية يا عمتي، اللقطات بينك وبين أمك باردة كالثلج. مثلًا انظري لهذه الصورة لكما في هذا الصالون تتشاركان أريكة واحدة. ومع ذلك يخزِّن المشهد فيضًا من الوحشة والغربة يجعل المتفرج يتخيل أنها صورة مركبة. وكأن جسدك في شرق العالم، وجسد أمك في غربه، والأريكة مَرْكَبة زمنية.

تنقبض معدتي، وبالكاد أتحمل سماع حديثها، تضيف:

- هل أصب لك معي قهوة إضافية؟

- أشكرك.. أعتقد أني سأذهب إلى النوم.

- أظن أنك ستحتاجين كوبًا آخر من القهوة، وبخاصة إذا كنت تريدين معرفة السر وراء الانكسار الدائم لرابط الأمومة بينك وبين أمك.

قذفتها في وجهي، وذهبت إلى المطبخ. شعرت بدوار فظيع، لم أتمكن معه من الوقوف باستقامة.

ناولتني كوب القهوة، وجلست إلى جانبي بعد أن أغلقت باب الصالون. قلت لها بصوت مختنق:

- ماذا تريدين؟

- هل تريدين معرفة السر، أم لا؟

- ما المقابل؟

- لا مقابل، أود أن أريحك.

- هاتي ماعندك يا ابنة أخي.

وضعت يدها في جيبها، وأخرجت الهاتف، شغلت شيئًا ما داخله، وأعطته لي.

خرج صوت ماما من تسجيل صوتي وهي تتكلم بأريحية وأمان. أوقفت التسجيل وأنا أصرخ فيها:

- هل تسجلين لجدتك؟

- إن كنتِ ستلقنينني درسًا في الأخلاق، سآخذ هاتفي، وانسي ما حدث.

سكنت دقيقة حاولت فيها تمالك أعصابي في تخوف شديد من ألاعيب ابنة أخي غير المتوقعة. شغلت التسجيل ثانية.

قال صوت ماما وكأنها تجيب على سؤال وجه إليها:

- لا يمكن لأحد أن يكره ابنه، ربما تنشأ بعض العقد بينهما، ولكن لا يؤدي هذا إلى الكراهية. فقط بعض الحواجز.

هل تعتقدين أني لا أشعر بالذنب حيالها؟ في كل مرة أراها لا أحتمل نفسي، أحس كأني أسوأ أم على وجه الأرض. في الوقت نفسه ليس بإمكاني محو عقدة صنعت نفسها بنفسها داخلي وارتبطت بابنتي ارتباطًا وثيقًا حتى إذا وقفت ليلى أمامي، تتشكل العقدة في أقل من ثانية.

قبل أن أتزوج جدك، كنت أعيش قصة حب مع شخص يشكِّل قرابة بعيدة لأسرتنا. ولكنه قوبل بالرفض التام من

العائلة بأكملها، وتمت خطبتي لسالم، ابن عمي، الذي أحبني وأخذني بالقوة، قوة قوانين الجذور وأصولها.

كان سالم يعرف بأمر قصة الحب، ورغم ذلك تزوجني وأذلني على إثرها، كسرني ربما لأني لم أتمكن من تطويع قلبي صوب محبته.

حاولت تصحيح الوضع والله وحده يعلم ذلك، ولكن شعور زوجي بالإهانة جعله في المقابل يحاول تحطيمي بكل الطرق، عن طريق اتخاذ عشيقة بين الحين والآخر، أو أي طريقة تضمن له اكتمال عملية سحق روحي.

ولد مراد، ومرت أعوام مستحيلة على قلبي الذي لم يتمكن من تجاوز حبه الوحيد، ولا من تخطي أحقاد سالم. كنت أعرف أخبار حبيبي من قريباتي، وأصدقاء العائلة. أتلصص عليه بكل الوسائل الممكنة، حتى رأيته في إحدى مناسبات العائلة. بضع دقائق يا ماتيلد كانت مدة لقائنا الذي جدد كل شيء وأشعل فتيل القلب من جديد. اتفقت معه على الرجوع إليه، أخبرته أني سأطلب الطلاق، ليأخذني ونرحل بعيدًا.

حينما سألني عن موقف الجميع مني، قلت له «تحترق العائلة، والعالم وأنا لست سعيدة، وأنا لست معك».

وحينما سألني عن مراد ابني قلت له: «إن ساومني عليه سالم، سأتركه له مقابل تطليقي».

بعد عدة أيام من الحفل اكتشفت أني حامل. حاولت إجهاض نفسي ولم يفلح الأمر. لقد كنت تعيسة، وحيدة، وصغيرة على كل هذا الإذلال والصبر الوحشي.

قلت سأصبر حتى ألد الطفل، وبعدها ربما نصل لاتفاق أن يأخذ كل منا طفلًا لأني كنت أعرف أنه لن يطلق إلا بالمساومة، وذهبت بعض الوقت بالتفكير في الهروب بالطفلين، ولكني خشيت ملاحقته لي ووصوله إليّ مهما ابتعدت، ووقتها من المؤكد أنه كان سيقتلني أنا وحبيبي، ويأخذ الطفلين.

كانت العائلة ذات نفوذ يصل لأي مكان وأي مدى. ولم يكن ليستعصي عليه بلوغي ولو اختبأت في باطن الأرض.

كرهت نفسي كل يوم في فترة حملي بليلى، بل وتمنيت الموت. لن تصدقي ماذا حدث بعد ذلك!

في اليوم الذي ولدت فيه ابنتي، أتاني خبر موت الحبيب. كيف مات، وأين، ولماذا؟

لم أعرف أي شيء.. أبلغني الخبر جدك ونظرته تفتتني. لم أصدقه وقتها وظننته يتلاعب بي، ولكن تم تأكيد الخبر من خلال العائلة نفسها. لم أستبعد عن سالم قتله لحبيبي.. لم تخرج الفكرة من رأسي دقيقة واحدة.

الحياة بعد ولادة عمتك صارت سجنًا لا مخرج منه. كرهت نفسي، ورأيت الطفلة شؤمًا.. وكلما مال قلبي نحوها، تفرض العقدة اللعينة نفسها فتزيح ابنتي من مجالي، وتقيم مسافة نارية بيننا.

لم أفضل أيًا من أولادي على الآخر، لم أميز مراد عن ليلى. لقد كنت امرأة محطمة، وليس بوسع امرأة محطمة أن تكون أمًا سعيدة. الفارق فقط أن مراد فطن إلى ذلك مبكرًا، وجعل نفسه محور العالم، عالمه.

أما ليلى، فلم تكف يومًا عن عقد الآمال على أمومتي، ولا زالت حتى هذه اللحظة يهيأ لها أنها الفانوس السحري الذي سيخرج لها ماما الحقيقية في يوم من الأيام.

سألت ماتيلد ماما:

- هل كان يعتقد جدي أن عمتي ابنة حبيبك، وليست ابنته، لذلك كان يعاملها بكل تلك القسوة، ويفضل مراد عليها؟

قالت ماما:

- جدك كان يعلم تمام العلم أن ليلى ابنته، ولكنها ربما

مسألة تفضيلات. يحدث أحيانًا أن يحب أحد الآباء ابنًا أكثر من الجميع. ربما حدث ذلك معه. وربما كانت لجدك عقده الخاصة، لا أعلم.

خطفت ماتيلد الهاتف فجأة، أغلقت التسجيل وهي تبتسم بحقارة. كنت في حالة صدمة لم تمكنني من إصدار أي رد فعل. ولكن ابنة أخي التي تعشق الأحداث الساخنة سألتني:

- أين كان يأخذك جدي في أيام العقاب الخمسة؟

نظرت إليها وقلبي يحترق، ركضت نحو الباب مباشرة لأخرج من الغرفة، ولكنها أمسكت مقبض الباب في إصرار رهيب على أخذ إجابة مني:

- أخبرتني جدتي أنه كان يختصك بالعقاب، وأنك كنت تغيبين كل فترة خمسة أيام دون أن يعلم أحد عنك شيئًا، حتى أمك نفسها لم تكن تعلم.

حشرت ماتيلد جسدها في فتحة الباب من الداخل، ومنعتني من الخروج، وواصلت عملية حرق قلبي بكلماتها التي جعلت الجروح تتفتح من جديد وتستوحش عليّ. أزحتها بعنف وأنا أصرخ فيها:

- يستحيل أن تكوني إنسانة، ابتعدي عني أيتها الشيطانة.

برعت ابنة أخي في استكشاف نقاط ضعف كل إنسان من حولها، لتتسلل إليه وتقتله من خلالها. ومهما حاولت منعها، كانت تستحل الأذى كنهج قويم لتسيير أمور حياتها.

في هذه الليلة، قررت الهرب من البيت إلى الأبد. أخذت حقيبة صغيرة ملأتها بدفاتر اليوميات، ورسائل عاصم. وتوجهت إلى بيته. كانت تلك هي المرة الأولى التي أدخل فيها البيت. ربما كان يعرف أني سأهرب يومًا ما، لذا ترك لي نسخة مفاتيح.

كان المكان بالداخل نظيفًا ومرتبًا، وكأنه لا يعاني غياب

صاحبه، كان الحبيب قد أخبرني في رسائله أنه كلف شخصًا للعناية بالبيت في غيابه بشكل دوري. ارتميت على الأريكة التي حكى لي عنها، الأريكة المخملية الحمراء التي وصف لي شكل سهراتنا المستقبلية فوقها.

شغلت التليفزيون، ونمت في مكاني. استغرقت في نوم متقطع عدة ساعات كنت أقوم منها منتفضة من أثر كف عاصم التي شعرت بها في كل غفوة تربت على كتفي.

عند منتصف الليل ذهبت إلى المطبخ الذي كان خاليًا من أي مكونات للطعام تقريبًا. صنعت كوب شاي بالمواد التي وجدتها (شاي ناعم، قرنفل، أعواد قرفة، عسل أبيض)، صعدت به أتجول بين الغرف. كل شيء بدا كما وصفه لي، غرفته، غرفة المكتبة، البهو الكبير، البهو الصغير، حتى غرفة المدفأة التي كان قد أعدها لي. نزلت ثانية إلى الأسفل، أنهيت كوب الشاي، وتركت التليفزيون مفتوحًا على خلفية فيلم كلاسيكية تضرب جذورها في أحلامي، وغرقت في النوم.

وفي الصباح، كنت قد هدأت بما فيه الكفاية لأعدل عن

فكرة هروبي وأعود إلى البيت. مسحت آثار الفوضى التي خلفتها، أخذت حقيبتي ورجعت إلى المنزل. وهناك قابلتني أمي على الباب وهي تقول: «هل تظنين أن بإمكانك الهرب؟ لا يقدر جبان مثلك على التحليق بعيدًا عن سربه». أما ماتيلد فقد ظلت أسبوعًا كاملًا تسخر مني، وهي تدندن أغنيات حول الرحيل.

بعد شهرين من واقعة هروبي، كتب لي عاصم رسالة يقول فيها: «رغم أنكِ اجتهدتِ في محو أي أثر لك، إلا أن البيت قد احتفظ برائحتك. هل تتخيلين أني قد لا أتعرف على مكان وطأته بقدمك؟ فما بالك إن كان بيتنا! أعرف جيدًا أنها كانت محاولة تحليق فاشلة، ولكني سعيد بهذه المحاولة، ولن أقطع الأمل».

كان يعود مرة في نهاية كل عام، وكنت أعلم بوصوله بطرد الهدايا التذكارية التي يرسلها إليّ.

ليس عاصم فقط من كان يهديني طرود الهدايا، بل سارا حبيبتي هي الأخرى. بل وكانت تتصل بي بشكل مستمر، تسأل عني، تخبرني بموجز أخبارها، تطمئن على ماتيلد في

سؤال لم تتغير صيغته «ما أخبار الطفلة؟».

ظللت هكذا في حياتي مع الجدة وحفيدتها، لا هم لي سوى رعايتهما وتحملهما، والاهتمام بالبيت ذي المهام الشاقة.

دخلت ماتيلد نفس جامعتي، نفس الكلية، نفس التخصص. وكان هذا هو الحدث الجديد في حياتنا الذي جعلنا ندور حوله فترة كبيرة. حتى خرجت علينا ابنة أخي في يوم من الأيام بكتاب مطبوع بين يديها وهي تقول «لقد نشرت روايتي الأولى».

خطفنا الذهول أنا والجَدة، حيث لم تكن هنالك أية بوادر لموهبة ما عند ماتيلد، ولكن في كل الأحوال سعدنا بها، بل وأقمنا احتفالًا. وفي الليل أخذت نسخة الرواية، وسهرت لاستكشاف عالمها الروائي.

أصابني الذعر من الصفحة الأولى. حيث وجدت مقاطعًا كاملة داخل البناء الروائي مأخوذة من دفاتر يومياتي. قلبت في الكتاب صفحة صفحة، لأجد ثلثي الرواية عبارة عن

نحت مبتكر من دفاتري بحرفية ومهارة لص أمين. شعور بالحسرة والغضب لم أعرف كيف بإمكاني السيطرة عليه. ذهبت بالكتاب إلى غرفة الكاتبة السارقة.

وهناك احتدم بيننا حوار بلغة الصراخ:

- هل تطلقين على السرقة موهبة؟

- أية سرقة يا عمتي؟

- دفاتري هنا، يومياتي داخل روايتك، هي فقط محبوكة داخل إطار روائي.

- ما الدليل على اتهامك لي؟ هل يعرف أحد بأمر كتاباتك؟ هل هناك ما يثبت من منا كتب أولًا؟

قبل عام أو عامين من هذا الحادث، عرفت بطريقة ما

أنها تراقبني وتفتش كل شيء يخصني، بل وتقرأ يومياتي. تركت أمامها كل شيء مباحًا، ولم ألجأ إلى الحرص رغبة أصيلة مني في الانفتاح عليها. جعلتها برغبتي الحرة تطالعها، دون ذرة تخوف منها، أو أي تشكك في نواياها، رغم معرفتي بشرور ابنة أخي، ابنة يدي، ومنابتها السوداء. رغبت بشدة في أن تقرأني، في أن أعري أمامها وجعي، في أن تعرف حقيقتي. كنت أتخيل أن بهذه الطريقة سنتوحد أخيرًا أنا وهي في شعلة حب واحدة، وأنها ستعود إليّ دون مكر، دون خديعة، دون جذور للشر.

يومًا بعد يوم كان يقتلني العجز.. موت مراد، موت بابا، حريق قلبي على عاصم، اضطهاد ماما لي، شر ماتيلد الخالص.. حتى صنعت «نادي الفواجع السري».

٩- نادي الفواجع السري

ليست مأساة أن تجحد عليك الأماكن التي وهبتك الحنان الأول، وليست مفارقة أن تغربل الكراهية مع المحبة في وعاء واحد. ستعرف كيف تتعايش حينما تعامل الألم كمفردة منفصلة.

فألمك هو ألمك وحدك، لا يمكن تقطيعه وتوزيعه، ولا يمكن تلفيقه لباعثه الأصلي. مجرد رحلة سخيفة ستدرب نفسك مرارًا على وحشتها، حتى ينتهي بك الأمر خبيرًا فنيًا يفككه الألم في كل مرة وكأنها المرة الأولى، ليعيد تركيبه بصورة أكثر تعقيدًا، لتطابق خلفية الألم الجديدة.

بدأت بخلفيتيّ الألم فكرة تأسيس رابطة أرواح ننشد خلالها الخلاص. متمثلة في «نادي الفواجع السري». مكان يضم أصدقاء يعرفون كيف يصنعون من الألم تشافيًا عظيمًا.

كان كل ما أتمناه صديقًا واحدًا، ليس لأنجو، بل لأحتمل الغرق. ولكن ماما كانت مثل الطوفان تصنع مني سفينة في كل يوم، تؤمِّن عليها ليلًا في مرفأها، وتحطمها مع أول إشراقة للنهار. عودتني هذه المرأة الدمار حتى ألفته، حتى إذا صار غيره، أذهب أنا إليه.

لم تترك لي فرصة بقاء أي من أصدقائي القدامى. حرمتني من دخول أي إنسان إلى حياتي.

كانت تقول بصفة مستمرة وبنبرة لا أنساها، نبرة لطالما حملتني على الشعور بالذنب تجاهها «حياتك ليست ملكًا لكِ، حياتك لمن وهبك الحياة». ورغم ولائي المطلق لها لأنها وهبتني الحياة، إلا أنها لم تأمن لإخلاصي مهما فعلت. حينما أدركت أن لا شيء سيرضيها، خلّقْتُ حيلة صغيرة متأخرة جدًا، حيلة من أجل الحياة؛ صنعت النادي. بدأته بفردين.. أنا، و«يسرية» صديقة قديمة أعرف فاجعتها وصداقتها أكثر مما أعرف أمي وجحودها.

كانت صديقتي الوحيدة في المدرسة، مررنا معًا بكافة المراحل التعليمية حتى تفرقنا في الجامعة. لم تكن صديقة فضولية تجاه حياتي، وكانت صبورة جدًا على غموضي المستمر والانقطاعات الكبيرة في علاقتنا، والتي عرفت بذكائها بعد قليل من الوقت أن السبب ماما.

كانت تزورني في العطلة الصيفية من كل عام. وكانت الوحيدة المسموح لها بدخول البيت، وذلك طبعًا وفق لائحة من الشروط. وافقت ماما على وجودها لأن حياتها تشبه حياتنا، وبمستوى وجذور مشابهة لنا.

كنا نتقابل أمام السيدة جيهان في الصالون، تجلس على الأريكة المقابلة تتفحص كل كلمة وكل نظرة بيننا.

ليسرية صورة وحيدة في ألبومات صور البيت. صورة عيد ميلادي العاشر، نعم إنها الصورة التي بدأت بها قصتي. لم أتحدث عن وجودها باللقطة حينما بدأت الحكي، لأنها كانت تقف خلفي مباشرة، وأنا وحدي من أعرف بوجودها في المشهد. حيث كانت تضع كف يدها على موضع قلبي من الخلف، على ظهري، وتربت ربتًا خفيفًا بينما كنت

أموت من الخوف. لن أجد أبسط من تفسير وجود يسرية في حياتي أدق من موضعها خلفي في الصورة والذي لا يشعر به سواي. انقطعت علاقتي بها ليس بسبب الجامعة، بل بسبب موت أبويها.

مات والداها في حادث سيارة، لم تمنحني ماما قاسية القلب وقتًا كافيًا لتوديعها. وبترت العلاقة لأنها ارتأت أن فتاة وحيدة بدون والديها ستفسدني، وستدمر بيتنا.

وهكذا تركتها بدون تفسير، ولكنها فطنت وأدركت بسرعة شديدة، بل ولحقت بي. وهكذا ظلت علاقتنا قائمة بالسر، مقابلة كل عدة أشهر تفي بالغرض، وتجدد أسس الصداقة. في أوقات كنت أغيب عنها مدة تزيد عن العام، وحينما كنا نجلس إلى طاولة واحدة، تستأنف معي حديثًا من منتصفه، وكأننا بدأناه بالأمس.

هذه هي يسرية، بسيطة، جميلة، شديدة الذكاء. في فترة من الفترات كادت علاقتنا تتحطم بسبب مراد، حيث نشأت علاقة حب بينهما. وفي مرحلة ما كشفته وكرهته لكن بعد أن شوه روحها تمامًا. كانت بعدها يائسة متخبطة، وكانت

مقابلاتنا تنتج نوعًا من الحساسية المؤلمة لنا معًا. تعطلت صداقتنا مدة عامين، ثم أعادتها هي كما تعرف كيف تعيد أي شيء.

أعتقد أنها مقدمة وافية لها. أعود إلى الحديث عن «نادي الفواجع السري». بدأ النادي بمجرد فكرة اقترحتها عليها، في بيتها الذي يقع في طريق ذهابي إلى المتجر. وافقت على الفور، كما فاجئتني بأن عندها من الأصدقاء من سيودون الانضمام إلينا. وبهذا أصبح اجتماعنا الأسبوعي في بيت يسرية ضمانة بقائي حية في البيت السجن، البيت الغابة، البيت اللعنة.

وهناك وجدت سلواي في الاستماع إلى القصص المأساوية لرفيقات النادي. لم أجرؤ على التكلم قط. كنت فقط أكتفي بتقديم الدعم لصاحبة كل قصة.

ربما أوجدت فكرة النادي للانشغال عن التفكير في عاصم، حيث لا آمن ضعفي أمام حنيني إليه. كنت أتابع صفحته على فيسبوك من حين إلى آخر. وهو لم ينقطع عن مراسلتي، ولا عن إرسال النسخة الأولى من كل كتاب له

بإهداء مكتوب لحبيبته السرية. إهداء موحد لجميع كتبه، للشخص نفسه.

في إحدى المرات خلال مؤتمر توزيع جوائز، حيث كان قد مُنح جائزة كبرى. سأله أحد الصحفيين عن سر الإهداء الغامض لحبيبته السرية، فأجاب وهو يبتسم في فخر «إنها ليلى، حبي الوحيد». انهال عليه سيل أسئلة بعدها «من تكون ليلى؟»، «ماهي أصولها؟»، «لِمَ لستما معًا؟».

لم أعرف قط طبيعة تكوين الصبر الذى تحلى به عاصم تجاه قصتنا التي تأكل الروح والعمر والكرامة! وما الذي جعله متيقنًا من بلوغنا معًا بيتنا، وحياتنا! واحد غيره كان سيهجرني ويلعنني مع كل فترات الانقطاع التي بدأت بها. وعلى وجه الخصوص قطيعة الرسائل بعد موت والدته، وتخليّ التام عنه.

استمرت فكرة النادي مدة ثلاثة أعوام. كان براحًا لنا جميعًا، حيث يشارك الأصدقاء فيه بالحكي، بينما أفضل تحضير المشروبات، والطعام.

ظللت صامتة طوال مدة إقامة النادي، حتى أتت فترة حفزتني فيها أوجاع رفيقة من رفيقات الألم على البوح الواهم. كان اسمها مارينا، وأتت إلينا في وقت حرج من إصابة ابنتها بالسرطان في مراحله الأخيرة. ظلت تحكي وتحكي أسابيعًا طوالًا حتى مزقتنا بخبر موت ابنتها. كدنا نموت معها من الحسرة والحزن. ولكننا حاولنا بكل طاقتنا أن نمنحها الدعم الكافي لمواصلة الحياة.

بإحدى المرات أهديتها كتاب «باولا» لإيزابيل الليندي بترجمة صالح علماني. في المرة التالية بدأت حكيها بمقطع من الكتاب بين يديها وهي تبكي:

«إنها تجربة سكون غريبة. الأيام تقاس حبة حبة في ساعة رملية صبورة، أيام تضيع في التقويم لشدة بطئها، ويبدو لي وكأنني أقيم منذ الأزل في هذه المدينة الشتائية، بين الكنائس والتماثيل والجادات الإمبراطورية. أساليب السحر أبدت عدم جدواها، إنها مثل رسالة نلقي بها إلى البحر في قارورة على أمل العثور عليها في ضفة أخرى ليأتي أحد وينقذنا، ولكننا لم نتلق جوابا حتى الآن».

أرسلت إليّ قبلة في الهواء، وهي تتمتم «الست إيزابيل تحمل حسرة في قلبها مثل حسرتي».

مسحت دموعها، وضعت الكتاب جانبًا وهي تقول بابتسامة بارزة على وجهها النحيف:

«لم أشعر يومًا أن الموت هو النهاية. والدليل عليه تواصلنا معًا بصفة مستمرة، بطرق مبتكرة وأخرى تقليدية جدًا. كالحلم الذي منحتني فيه ابنتي عناقًا منفتحًا على بوحٍ كبير. لا يعني التواصل بتر الألم، إن دماغي تَغلي أحيانًا وتُجمد عالمي.. ولكن رغم كل شيء لا زلت أشعر بها هنا، في قلبي تحديدًا لتجعل من الموت فكرة مثمرة كما الحياة تمامًا».

١٠- امرأة الإيجو

الوقت الذي ابتدأ فيه البوح، كانت النهاية تضع أوزارها في الجهة المقابلة. نهاية نادي الفواجع السري.

بعد زمن طويل من المشاركة عبر الصمت، قررت أن أجلس على كرسي الاعتراف الذي لم أجلس عليه قط. ولكني اخترت حكيًا بطريقة مضادة، بشكل مغاير لما يمكن أن نطلق عليه بوحًا.

شيء لا يستند إلى الحقائق، أو مقدار الصواب والخطأ. بكل بساطة صممت عناصر حكاية خيالية، لا أعتبرها كذبًا، أو تلفيقًا؛ بل رأيت فيها قصتي التي لو منحت حق الاختيار، لحدثت بنفس النمط.

كانت يسرية، وماريتا في الصف الأمامي، تنظران إليّ

بحب ولهفة ارتياح من أجلي، من أجل من أرادتا لها التخلص من عناء السر. بدأت القصة في ارتجال فطري يشبه الحياة نفسها:

«أنا ليلى، تزوجت من حبيبي في بيت يشبه حضن أم. نعيش معًا كل يوم وكأنه أول يوم في الحب، في الوله. في العشرة الودودة الرحيمة. لي منه ابنة تشبه الزهر النادر، أسميناها «أميرة».

ببيت بمدينة بعيدة تعيش ماما، أخي، والقطة نورا. كنا بخير جميعًا حتى مرضت ماما بالسرطان، ولا أريد أن أخوض في تفاصيله، مرحلته، نوعه.. أي شيء حول طبيعة وجوده. البيت هناك أصبح مقبرة بالمعنى الحقيقي للموت.

نُحلَ جسد أخي حتى خسر ثلث وزنه، القطة نورا باتت شبحًا يجلس أمام المدفأة ليل نهار، في البرد وفي القيظ. أنا تحولت فجأة إلى بيت. صرت بيتًا لا يحتمل هذا التكوين، لا يعرف كيف يحمل ساكنيه.

أرافق ماما في المستشفى، نكون بخير، أعتقد أننا نكون بخير. أثناء جرعات العلاج الكيميائي ندخل أنا وهي أغلب الوقت في هيستيريا الضحك. نجتر كل الذكريات، ونقلب أي مشهد بشكل يخدم الكوميديا. لم تكن كوميديا سوداء. بل ضحكًا صافيًا.

تغفو أمي قليلًا، فأتذكر موقف بإمكانه سحب خيط الحكي. فأهمس في أذنها، لتستيقظ وينتشي وجهها بالحياة، ونبدأ وصالًا لا يتوقف حتى نتعب، أو حتى يغلبنا النعاس.

لكن في المنزل كنا ننقلب إلى عفاريت تخاف السكان الأصليين للحياة، تخاف نسختنا الأولى التي خلعناها بعد مرض الأم بدقيقتين.

لم نكن دائمًا في حالة غضب رغم ما تخلفه الهزيمة التابعة لهذا المرض اللعين. ارتكزنا على قاعدة ثابتة في بيتنا منذ سلك العالم طريقه نحونا، أو العكس. طريقة لتقبل الأمور الأكثر شناعة من الخارج، بشكل يتيح معه الاستراحة والسكينة، وأحيانًا النشوة. ولكن ما من سلاح

كان فعالًا للسيطرة على توابع الغضب التي خلَّفها القبول نفسه. توابع مثل الصمت، الكراهية منعدمة الدوافع، الشر.

في مرحلة متقدمة من مرض ماما واحتقان الحياة فينا، اعتمدت فكرة العيش في الماضي، والتنعم داخل خزين الذكريات السعيد الآمن. ذكريات عن نشأة كل شيء وأي شيء.

نأخذ مثالًا.. فكرة الطعام نفسها بما تحمله من ملابسات حول المصطلح والمعنى. أول شخص غير في ذهني فكرتي عن الطعام كان أخي. يذهب والديّ في مشوار، ويتركانا أنا وهو في البيت، فيقوم بتحضير الطعام.

فقط يطلب مني رفقته الصامتة بينما يتولى العملية كاملة. في البدء ينظف الرخامة حتى تلمع، بعدها يرص المكونات بترتيب وحرص. يصنع الأومليت، مكعبات الجبن بالطماطم، البطاطس المقلية، المربي بالقشدة، الفواكه بالعسل، الزيتون الأخضر بزيت الزيتون، الشاي.

نجلس إلى الطاولة، فأبدأ في تأمل طريقته المنمقة في تناول الطعام، في ذلك التقديس الدافئ لكل مكون على حدة، لتتحول كل لقمة بين يديه إلى فن. كانت رؤيته وهو يجهز الأطباق، وهو يأكل، فاتح الشهية الوحيد الذي يحولني من طفلة تعاني سوء التغذية وتلتصق على الدوام بنوع واحد فقط (شريحة خبز بالجبن) إلى طفلة تشتهي كل الأصناف.

متى تعثرت أنا وطعام ما، أو واجهت صعوبة في أن يألف أحدنا الآخر.. أعود إلى أخي.

آخر مرة اجتمعنا فيها، حاولنا صياغة مفهوم جديد للعناق.. وقفنا في المطبخ، أمام اللمبة الصفراء التي تشبه الشمس، والتي أحضرها لي أخي كتميمة حماية ضد تعويذة خوفي الطفولي من الأضواء الباردة. وإلى جانب أيادينا على الرخامة البيضاء استقر الراديو بصوته الخفيض ليكمل سيرة العناق المبتكرة.

فردت العجينة بينما يقطع الطماطم إلى شرائح منتظمة انتظامًا خطيرًا، كما اعتاد أن ينظم كل شيء بدءًا من

طفولتنا وحتى وقفتنا المنحنية على الشباب. وقبلها بليلة كنا نقف نحن الأربعة: أنا، أخي، أمي والقطة حول خليط البرتقال بالجزر وهو ينضج على نار خافتة.

ما من صيغة كانت أكثر موضوعية لشفاء الحزن بشكل مبدئي كمحاولات ترصد الذكريات الآمنة وتمشيط طرقها مرة بعد الأخرى..

وجميعها تجلت في المطبخ، بين الموقد والرخامة، والخزانة الخشبية الناعمة، والأرضية الواسعة التي تقبل ارتطامنا كل مرة في خنوع أمام باب الفرن الذي شهد من نضج انهياراتنا أكثر ما شهد نضج الحياة السرية للطعام داخله.

في الأيام السابقة فلت مني الماضي نفسه، وتفجر كل منبع بإمكاني الركون إليه كمنطقة آمنة من عدوى الموت. على إثرها بدأنا معًا أنا وأخي تضمين أنفسنا داخل مشاهد مبتكرة اليوم بيومه. وهكذا انقسمت لحظاتي بين بيتي في المدينة البعيدة، وبيتي بالقرب من أمي وأخي.

في الجزء الزمني الذي أقضيه بعيدًا عن بيت أمي.. أقف في الرابعة فجرًا، بشكل يومي خلف الواجهة الزجاجية لبهو بيتي متأملة العالم الذي لم يستيقظ بعد.

أمسح على الزجاج بيدي، ألصق أنفي وفمي برشاقة من أجل صنع شبورة طازجة، أمارس كل الألعاب الطفولية في انتظار أن تستيقظ ماما ليعرف قلبي في مدينته البعيدة أن بإمكاني أن أرفع سماعة الهاتف الأرضي وأطلب الأرقام العشرة رقمًا رقمًا، أملًا أملًا..

أتهته للمرة المليون ربما: «ألو يا ماما، تعرفي إنك الوحيدة في العالم دا اللي أحب أسمع صوتها على الريق، كل يوم لحد آخر لحظة في عمري!».

أنا الإنسانة التي لا تأتلف الأصوات، لا تتعرف عليها مستقبلات الأمان في رأسها، أزحف نحو صوتها وكأنه مضاد الغربة الوحيد الذي يفهم لغتي، ويُسْكِن غرابتي. صوتها الذي يجعل البيت بيتًا، ويجعل المحبة قابلة للتناول، يحركني لأن أطهو الحب، لأن أكتب الحب، لأن

أشكله في علبتَي طعام.. واحدة لزوجي، وواحدة لطفلتي.

لأن أعانق جارتي الجميلة، لأن نتفق على موعد قريب للقهوة، لأن ينعم أبطالي في الحكايات بيني وبين أمي بسكينة بعد طول فزع، لأن يكون الوجود بيتًا، أغدو فيه طفلًا لا يربطه به سوى هذا الصوت.. أغلى صوت بالعالم».

وهكذا ارتجلت قصة كاملة لم أشعر لحظة خلالها أنها كذبة، أو خيال. كنت أصدقها وأؤمن بها بينما أحكيها. حتى إني حينما انتهيت من الحكي عانقتني يسرية التي تعرف قصتي الأصلية جيدًا. ابتسمت وهي تقول لي: «المرأة التي نحتها الإيجو». ثم أضافت وهي تضحك بصوت رنان «أعتقد أنك ستموتين يا ليلى يوم يعرف العالم أخبارك، وبخاصة أخبار السيدة جيهان الكاشف».

ظل نادي الفواجع السري قائمًا حتى نزعت سره وأمانه ماتيلد. ماتيلد التي راقبتني، واستأجرت من أجلي فتاة تدعي المأساة وتمثل الدور بشكل جيد، أوقعَتْها في طريق يسرية كي تختارها معنا في النادي. وهكذا تم دس

الجاسوسة بيننا مدة ثلاثة أشهر، كان يتم فيها تسجيل كل لقاءاتنا.

وفي يوم ما وبكل بساطة فضحتني ابنة أخي عند ماما، حكت كل شيء، وشغلت لنا التسجيل الصوتي الذي أسرد فيه قصتي المتخيلة. هكذا وضعت نهاية نادي الفواجع السري..

نشرت ماتيلد روايتين بعد روايتها الأولى التي نحتتها من دفاتري. ولكن النقاد هاجموها بعنف بعد الكتابين الأخيرين. وقال الجميع أنهم كانوا يتوقعون منها بعد روايتها المذهلة، شيئًا عظيمًا يتخطى حاجز الإبهار. كانت ماتيلد تحترق وتحرقنا معها جراء هجمات النقاد، رغم أنني الأوْلى والأجدر بالاحتراق بعد أن سرقت سيرتي الذاتية، وأقامت منها رواية صنعت الدهشة.

ماتت ماما بعد ذلك بعدة أشهر بنفس طريقة موت بابا، وهكذا بقينا أنا وماتيلد في مواجهة بعضنا البعض في البيت الكبير.

١١- الفصل الأخير

يرتجف صوت داليدا بطريقة تأكيدية «أملي دايمًا كان يا بلدي إني أرجعلك يا بلدي، وأفضل دايمًا جنبك على طول». يتردد المقطع بينما أضغط بأصابعي كوب الشاي على حافة الشرفة التي تبتلع شارعًا بأكمله بقلب القاهرة. وأنا أيضًا لم ينقطع أملي في الرجوع إلى هذه الأرض، كما لم أطرد من عقلي قط فكرة الهرب الأبدي.

إشكالية المنفى المعلقة داخل ساحة وطن لن يعي أبدًا أنه وطن هي نفسها إشكالية الاغتراب الذي لم يبرح بقعته دقيقة واحدة ليقرر أيهما أفضل! حرقة الداخل أم الخارج؟ رغم كل تلك السجون التي أقرأها وأكتبها لم يولد السجن الأصلي بعد.. السجن الجنة، أو السجن الظل.. البصمة التي تعمل تبعًا لها هياكل أرواحنا العملاقة التي أسست الأصل وظله، ونسيت أن تخبرنا أصول عملية الاقتران.

١١- الفصل الأخير

يرتجف صوت داليدا بطريقة تأكيدية «أملي دايمًا كان يا بلدي إني أرجعلك يا بلدي، وأفضل دايمًا جنبك على طول». يتردد المقطع بينما أضغط بأصابعي كوب الشاي على حافة الشرفة التي تبتلع شارعًا بأكمله بقلب القاهرة. وأنا أيضًا لم ينقطع أملي في الرجوع إلى هذه الأرض، كما لم أطرد من عقلي قط فكرة الهرب الأبدي.

إشكالية المنفى المعلقة داخل ساحة وطن لن يعي أبدًا أنه وطن هي نفسها إشكالية الاغتراب الذي لم يبرح بقعته دقيقة واحدة ليقرر أيهما أفضل! حرقة الداخل أم الخارج؟ رغم كل تلك السجون التي أقرأها وأكتبها لم يولد السجن الأصلي بعد.. السجن الجنة، أو السجن الظل.. البصمة التي تعمل تبعًا لها هياكل أرواحنا العملاقة التي أسست الأصل وظله، ونسيت أن تخبرنا أصول عملية الاقتران.

بينما أقترب من النهاية هل بإمكاني القول إني فلحت في تفويض الكتابة هذه المرة لتنوب عن الحكاية الأصلية؟ في البدء كانت مذكراتي، تلتها عملية التقليد الغاشمة من قبل ماتيلد في رواية رغم مطابقتها لمواضع كثيرة في اليوميات، إلا أنها لا تحمل بصمة الحكاية الحقيقية، حكاية مفلترة لسارق ذكي يعرف كيف يسرق..

ولكن السؤال هنا هل علمت ماتيلد ماذا تسرق؟ في الحقيقة لم تعرف قط، وأنا حتى لم أقارب القصة الأصلية للبيت بكتابتي للمذكرات. ليس لأنني أكتب القصة الأخيرة بينما يبتلعني الحياد تمامًا؛ بل لأن هذا البيت لعنة يعرف كيف يُحوِّر نفسه في كل حكاية ليخرج لك عشرات النسخ المتباينة التي بالكاد يمكنك تمييزها، أو حتى الإشارة إليها كونها تنتمي لكيان واحد. ربما لا يصدقني أحد فيما أقول، ولكن كوني سليلة هذه الجذور فأنا على دراية كافية بما أقول.

في كل مرة تصفحت فيها دفاتر يومياتي، كنت أرى تسلسلًا للزمان بخاصية التعويم أو التطواف فوق المكان، لتنتج في النهاية صورة تحمل الزمان والمكان معًا، الزمن كأصل، والمكان كأثر.. وبالطبع أقصد بالمكان «البيت».

أما رواية ماتيلد المقلدة، فقد كانت مفرغة تمامًا من مفهوم البيت. سرقتنا، ابتكرت منا أبطالًا جددًا بتحريف طفيف لكل بورتريه شخصي، ولكنها جعلتنا كمن يلعب في الفضاء. ومحاولتها المستميتة لتركيب زاوية رؤيتي فوق محجر عينيها جعلت البيت يفقد هويته تمامًا، ليصبح الحدث (اليوميات نفسها) بطل الحكاية.

أما الرواية الأخيرة بين يديّ والتي بالإمكان تسميتها «الرواية التي كتبت نفسها»، فبطلها الرئيسي هو «البيت»، ونحن فيه مجرد خدام للحكاية.

وهذا تحديدًا ما أسقط عني جنون الغضب.. الغضب من ماتيلد من أجل السرقة. صحيح أنني احترقت لوقت طويل، ولكني آمنت في قرارة نفسي أنها سرقت ما لا يمكن سرقته.. هل يمكن لأحد أن يسرق الهواء؟! لتغترفه إن شاءت؛ حيث يخص الجميع، وما من أحد بإمكانه التغيير في تركيبته.

وبذكر سيرة الغضب، أريد أن أعترف بكامل اتزاني وثباتي النفسي -بينما أصنع مشهدًا للنهاية بصيغة بديلة لتناول شريحة توست محمصة دون زبد- أن الدافع الرئيسي وراء التصاقي بالبيت لم يكن يخص ابنة أخي، ولا أحمِّلها بشكل أو بآخر مأساة ضياع عشرين عامًا.

جميعنا نحتاج صورة منطقية ثابتة لنمارس حقيقتنا من تحتها، وصورتي الوفية كانت أمومتي لابنة أخي. بينما في الأسفل جل ما أردته هو أن أستعيد بنوة لم أحصل عليها، ولم أعرف يومًا هيئتها.

هل كان من الصعب عليّ الهرب مثلما فعلت سارا؟ لكي تخلع جذرًا لابد أن تثْبت وجوده، لابد أن تمسكه بيديك، أن تعاين عمقه بعينيك. ولم أكن لأطير مبتورة بشكل عشوائي. والآن بعد أن تحصلت على الجذور، بإمكاني رؤيتها تجرجر نفسها خلفي بينما أنطلق دون أن يعيبني ويعيقني هذا الثقل.

بأحد أيام كانون الثاني لهذا العام، جاءت ماتيلد من الخارج وهي مبتلة تمامًا وترتجف بعنف شديد. فزعت من

هيئتها. كانت متصلبة في مكانها لا تنطق بكلمة. أخذتها من يديها إلى غرفتها، بدلت ملابسها، وحاوطتها بالأغطية أمام المدفأة. لففت منشفة حول شعرها، مشطته ورفعته للأعلى بربطة من شعري خلعتها لها.

عرضت عليها وجبة عشاء خفيفة، فأومأت برأسها بالإيجاب. وهناك في المطبخ أجلستها بمواجهتي وأنا أقول لها: «سأصنع لك شيئًا ما بين الابتكار، والتقليد. ولكن أولًا سيتحتم عليّ حكي قصته. في فيلم «phantom thread» تقوم البطلة بصنع طبق من البيض بالفطر السام للبطل الذي تتجدد رابطة المحبة بينهما فقط من خلال هذا الطبق.

البطل المتعجرف القاسي، تعيده البطلة طفلًا جائعًا للحنان والاحتياج بوجبة تغرقه في المرض أيامًا. سأحضر لك الوجبة ولكن بفطر غير سام».

تضحك بصوت مرتفع، أضحك وأنا أكمل: «ليست هذه هي النقطة المبتكرة، بل الإضافة التي سأحكم بها طبقي. الثوم، سأضيف فصًا من الثوم المفروم مع قطعة الزبدة

ليمنح الطبق نكهة أعتقد أنه يفتقدها».

أصنع الطبق، تلتهمه، وتميل في لحظة برأسها فوق كفي. ماتيلد التي تذكرني بشكل أو بآخر بوحشية أخي الوديعة، بقلب الوحش المفطور، وساديته المذبوحة. كانت هذه هي المرة التي هاتفني بعدها عاصم ليخبرني عن حكاية ابنة أخي، عن محاولاتها معه لتستميل قلبه، قلب حبيب عمتها دون أن تدرك أنه سيكشف حقيقتها بأسرع ما يكون. قال لي الحبيب: «هل هذا ما كنتِ تخفينه عني؟ هل هذا هو عذرك في تحطيم قصتنا؟ أنك كنت مشغولة بتربية وحش بين أحضانك؟».

انتظرت أن يسحبني العام الجديد، وأن تتقدم بي الشهور فيه كي أستخرج ردة فعل تجاه غضبي من ماتيلد. حتى إن عاصم عاد من سفره منذ عدة أيام، وجاء إليّ ليسترد حبيبته، معتقدًا أني أصبحت حرة. ولكني طلبت منه أيامًا إضافية كي أتمكن من اللحاق به.. وها هي أيامي، أيام التصفية..

لا أفهم طينة ابنة أخي، تأتي إلي محطمة، تأكل وتنام

على يدي مثل طير جريح. وهي تحاول سرقة الشيء الوحيد المتبقي لي! كيف تعيش معي، تراني كل يوم، تحكي لي، تشاركني طعامي، تسليتي، نومتي بغير الوجه الحقيقي!

كنت أعتقد أن عرق الإبداع المحمل على وجه الشر الخالص احترق ودفن مع أخي مراد، ولكن على ما يبدو أنه حيٌّ يقظ، ويسري في دم ابنته بنفس الفظاعة. استخدام البشر كأدوات، كقرابين للكتابة.. أي كتابة أيها الملاعين؟ تترك الصغيرة كل رجال العالم، بكل قصص الحب المتكشفة أمامها، وتركض خلف قصة عمتها لتحرقها وتكسرها فوق رأسي. هل نفد الرجال من الدنيا لتحب حبيب عمتها، وتفكر في كسر قلبي بندية لا تناسب كل ما فعلته من أجلها؟

في حياتي كلها لم أر لوحة تجسد الشر الصافي مثل ماتيلد. الشيطان الذي تم تدليله وتلميعه ليصبح إلهًا متشيطنًا لا يترك أحدًا دون تدميره بالكامل.

«الضحكة الصافية التي قابلتِ بها طعامي، وجبتي الساخنة يا حبيبتي، محاولات عمري من أجلك يا ابنتي..

كل هذا كان مجرد سجن، شبح بيت!

أنا الآن في طريقي لإنهاء قصتي على نهاية لا أعلمها.. على مشاعر غير واضحة. ولكني على حس هذا النزف أخيرًا كتبت الحكاية، أخرجتها ككتلة متفجرة من الداخل.

ما من طريقة كانت ستبلغني هذا المنتهى، وتجعلني أكثر فهمًا لعقليتي التي برعت في الخضوع لكل سجن عرفته، إلا أفظع درجات الألم. وهبني ألمك النعمة يا أحب الناس إلى عمري..

بعد لحظات، ستكونين حرة، سترحلين من هنا. وأنا سأعرض هذا السجن، هذا البيت للبيع، ولا أعرف إن كان باستطاعتي البدء مع عاصم من جديد، أم إن صورتك في ذهني ومحبتي الكبيرة لك ستقف بيننا؟

حطمتِ كل شيء يا ماتيلد، والآن عليّ أن أولد من هذا الحطام. حينما يُفتح الباب بشكل تلقائي بعد لحظات لا أريد أن ألمح وجهك حتى.. وبالأعلى أمام باب البيت

ستجدين حقائبك، بالإضافة إلى أوراقك كاملة فيما يخص تركتك العائلية. الوداع يا ابنة أخي».

كانت هذه آخر كلماتي لها، وآخر مرة أراها فيها.

أشعر بألم جبان يخنقني، أقصى ما تمكنت من فعله هو مواجهة وحش صغير من خلف القضبان دون أن أجرؤ على النظر إلى عينيه. اقتدتها إلى هنا بغضب مجمع أخذ وقتًا طويلًا جدًا من أجل مرحلة الإحماء، لم يؤهلني الغل لأنتقم انتقامًا مدروسًا شرهًا وعادلًا، لأن حقدي عليها حقد ضعيف مقارنة بكراهيتي لهذا البيت، لنفسي داخله. وحينما طلبت منها كتابة رواية داخل السجن، كنت أمنحها فرصة كتابة رواية البيت الشريفة، دون سرقة أو نهب، ولكن في لحظة بعينها قادتني الرواية إلى نسختي التي لم أكتبها.

التقطت الدفتر وقررت كتابة الخاتمة بنفسي بعدما دونت مشاعري المتخبطة بفقدان أثر ماتيلد:

«تكتب لتتخلص من الذيول، ولكن الذيول لا تنتهي. تعبث

في بيئة شديدة الخصوبة، بيئة منتجة، جوهرها هو الوفرة. لا تقدم الكتابة أي حلول، ربما تساعدك على الفهم. ولكنها لن تنقذك بصفة دائمة. ستحتاج من أجل استمرارية عملية الإنقاذ، استمرارية الموت. تنتهي من كتاب، تتخيل أنك تقيأت جثتك القديمة، لتفاجأ بعد فترة راحة قصيرة أن هناك شيئًا عالق بالداخل، تبدأ في اجتراره واحدة واحدة حتى تكتشف في النهاية أنه جثة جديدة.

في كتابة اليوميات، كنت أشاهد بعيني الجروح تتفتح عشرات المرات بنفس مقدار الوجع. وأسأل -من خلف مرارة الصبر- هل أغلقت الجروح بطريقة خاطئة لتعود وتتفجر من جديد؟ ما الذي يجعل الجرح يجدد تكوينه في آلاف الأنماط، مغيرًا قصته في كل مرة حتى ليخيل عليك كونه وليد المنبت ذاته؟ فإذا اقتربت عرفته وميزت وحشيته.

وبينما أقترب من النهاية، ما الجميل في كون الحكاية ذاتية إلى هذا الحد؟ بالنسبة إليّ أراها مفجعة، ومركزة أكثر من اللازم. ورميّ الحقائق بكل هذه البساطة لا أعتبره إحدى سمات الأدب في خيالي، لا أعتبر أنه يمكن أن يصدر عن كاتبي المفضل..

عن عاصم مثلًا الذي يأخذ طيفًا واهنًا من الحقيقة، ويصنع منه صرحًا مكتملًا يكاد يكون أوفى من الحقيقة نفسها. يجيد اللعبة بشكل لا أعرف كيف أصفه، يرمي بذرة أعرف أنها تخصه بين ألف واحدة، ولكن حين تدق ساعة الحصاد أرى ألف عاصم أمامي. هذه هي الكتابة التي أريدها.. ألف واحدة مني يتوه فيها الجميع، بمن فيهم حبيبي.

أما نوعية الكتابة التي تشبه الجلوس على كرسي الاعتراف، فلا أثق بوضوحها الفج. هذا النوع من التعري ربما يكون جميلًا لدى من يعتدون بكون السيرة الذاتية أحد أعمدة الأدب شديدة الجمال والنزاهة. ولا أقول إني أرفضها، أو أعترض عليها. الأمر كله مقتصر على رؤيتي الأحادية الفقيرة لذاتية الكتابة، لشخصنتها تاريخًا إنسانيًا بصفة المكاشفة، لاعتبارها شيئًا في كتابته يدوس على عقدي، ولا أريد مطلقًا أن يعرف العالم شيئًا عن معاناتي.

متى سأكون كاتبة قادرة على أن تسمح للعالم بقراءتها مرتبط بقدرتي على التنميق، القص، التلصيم، والتلفيق.. من أجل حياكة قصة في إطار حقيقي، ولكن باطنها مموه إلى حد لا يجعل أحد يعثرعليّ فيه، أو يشير إليّ من خلاله

قائلًا «هذا أنتِ». هذا هو ما أبتغيه، الكتابة بالتشويش. أن يقرأ الجميع، يرونني وراء كل كلمة، وراء كل حرف، دون أن يضع أحد يده على القبر الذي دفنت فيه.

أجلس إلى طاولة المطبخ، «المطبخ حيث لا يمكن للأموات البقاء، ولا للأشرار الخلود»، جملة سارا الشهيرة كلما أخبرتها أني ميتة أعيش حياة أشباح. من خلف كوب حليب دافئ أعاين دفاتر مذكراتي، رواية ماتيلد المقلدة، الدفتر الأخير بالنسخة التي أتمم فيها النهاية. أمرر نظرة سريعة بين النماذج الثلاثة وأنا أقبض بيدي على الرواية التي خرجت لتوها من السجن، أسأل «هل هذه هي النسخة الأصلية للبيت؟».

يا للعبث.. طاولة تحمل فوقها تاريخًا موجزًا للسجون. سجن البيت، سجن الأمومة، سجن الكتابة.

وآه من سجن الكتابة.. تلك اللعنة التي دفعت أبي ليقيم فوقي عالمًا من الألغاز في نفق تحت الأرض، وحفزت مراد ليكون صورته الأكثر شرًا، وحركت ماتيلد نحوي لتأكلني، وتلتهم عالمي. وشحنتني بشكل غامض لاختيار كاتب

لأحبه، وأحطمه، وأشتته في كل بقاع الأرض. إرثنا العائلي إرث من فئة السجون».

انتهت الرواية، رحلت ماتيلد، وعاصم ينتظرني. لا يهم الآن مقدار التشوه الذي أصبحت عليه، ولم يعد يؤرقني ظهوري أمام حبيبي بهيئة مكسورة، وعقدي جميعها تسيل مني.

في الوقت الذي كان العمال فيه يضعون اللافتة الكبيرة على بوابة البيت «للبيع». كان عاصم يقف خلفي، واضعًا كفيه على كتفي. مشينا معًا يدًا بيد، بعد أن أرسلنا حقائبي مع السائق إلى بيتنا. سرنا مدة ثلاث ساعات، حتى وصلنا إلى البيت. وهناك استقبلني حكيم، تعرَّف أحدنا إلى الآخر. جلسنا نحن الثلاثة في الشرفة الأمامية، على الأرضية أمام الباب مباشرة نستقبل الليل وأنا أمسك أول نسخة من رواية الحبيب الأخيرة التي خرجت لتوها من المطبعة.

بدأت في قراءة المقدمة:

«اعتدنا أنا وأنتِ تصحيح مسارات الحب في محطات

الوقود، الشوارع، المقاهي، النواصي الهادئة، والمطاعم الشعبية. كنا نقوّمه بشكل عفوي، دون أن ندرك ميكانيكية ربط العقدة بعد كل تصحيح. ربما لأننا كنا نتفق ضمنيًا وبنمط سري، على كوننا عاشقين مهزومَين في قصة.. الحب وحده فيها من يجسِّد البطل العنيف.

في محطة الوقود الأخيرة التي توقفنا عندها قلتِ لي: «لن نصطاد طائرًا جارحًا، لن نذبحه، لن نأكله». لذا تُركَ المسار الأخير أمامنا مفتوحًا، لأننا لم نخترع بعد وسيلة نظيفة تؤَمّن لنا الحب كطائر جارح نأمن شره دون أن نقتله!».

دخلنا البيت معًا، ومن خلف زجاج النافذة رأيت حياة قادمة علينا، غير التي كانت تزحف في الماضي خارج بيت العائلة الكبير، دون أن تجرؤ على الدخول.

تمت